الأصل الأول

الإسلام نظام حياة شامل

الأصل الأول

الإسلام نظام حياة شامل

ما أحوج الدعوة الإسلامية فى أيامنا ، إلى توضيح مفاهيمها الأصلية للناس عامة ولأنصارها خاصة ، حتى لا يفهمها أحد على غير وجهها ، أو يحرفها عن حقيقتها ، أو يحاسبها على غير ما تدعو إليه ، أو ينحرف عنها لأمر يعتقد نسبتها إليه وهى منه براء .

لهذا نحاول أن نعرض بالشرح والتحليل لـ « الأصول العشرين » التى جعلها الإمام الشهيد حسن البنا أساساً لوحدة الفهم عند جنود الحركة الإسلامية ، والتى نهج فيها منهج الوسطية والتوازن ، الذى لا يغلو مع الغالين ، ولا يقصر مع المقصرين . ومن هنا حاول أن يصوغ هذه الأصول صياغة تتسم بالحكمة والاعتدال ، وأراد بها أن تكون « محوراً » يلتقى عليه أبناء الجماعات الدينية المختلفة التى تنتسب كلها إلى الإسلام ، ولكنها تختلف فيما بينها على فهم بعض النقاط فى الأصول أو الفروع ، اختلافاً قد يجرها إلى الخصام والتناحر والتنابز بالألقاب .

وربما كان منشأ هذا الخلاف فقد « الميزان » الذى يحتكمون إليه ، وعدم تحديد المصدر الذى يستمدون منه المعرفة والحكم ، أو الغلو فى تقدير بعض الأمور على حساب أمور أخرى ، أو اللدد فى الخصومة وسوء الظن بالآخرين ، أو عدم دقة التعبير فى المسائل ذات الوجهين أو الوجوه المتعددة .

لا نعجب إذا رأينا فى مصر مثلاً : جماعات « أنصار السُنَّة المحمدية » و « الجمعية الشرعية » و « شباب سيدنا محمد » و « جمعية الشبان المسلمين » وجماعات « الطُرق الصوفية » وغير ذلك . وليس بينهم جميعاً إلا التراشق بالتهم ، وادعاء كل منهم أنه على الحق وحده ، وأنَّ غيره على الباطل . بل ربما امتد هذا التراشق إلى حد تكفير بعضهم بعضاً .

* * *

● موقف التجمعات الدينية فى مصر عند ظهور دعوة البنا :

وكان بين هذه الجماعات كلها عيب مشترك ، هو اهتمام كل واحدة منها بناحية معيَّنة من رسالة الإسلام ، والتركيز عليها ، وإهمال النواحى الأخرى ، أو إسقاطها من الحساب ، وربما عابت الذين يشتغلون بها ويوجهون عنايتهم إليها .

فجماعة « أنصار السُنَّة المحمدية » تهتم بأمر « العقيدة » وتصفيتها من شوائب الشِرك الأكبر والأصغر ، ومحاربة المبتدعة الذين يسمونهم « القبوريين » ممن يقدسون « الأولياء » ويطوفون بـ « الأضرحة » وشن الغارة على الذين يؤولون آيات الصفات وأحاديث الصفات ، كالجمعية الشرعية وغيرها . وأكبر عدو لأنصار السُنَّة هو « المتصوفة » المحدَثون منهم والأقدمون ، المعتدلون والمتطرفون ، النظريون والعمليون .

و « الجمعية الشرعية » تعنى بالعبادة وبخاصة الصلاة علماً وعملاً ، وتهتم بأدائها على ما جاءت به السُنَّة ، وتحارب الابتداع فى ذلك وسعها ، وتنشئ مساجد خاصة بها . ولكنها تتبنى - مثل معظم علماء الأزهر - مذهب الأشاعرة فى تأويل آيات الصفات وأحاديثها . ولهذا شبَّت الحرب بينها وبين أنصار السُنَّة ، وكان لها لهيب واستعار دام سنوات طوالاً .

و « جمعية الشبان المسلمين » معنية بالجانب الثقافى ، فهى تدعو لإلقاء المحاضرات ، وعقد الندوات ، كما تهتم بالنشاط الرياضى ، الذى جذب إليها بعض الشباب .

و « شباب سيدنا محمد » عنوا بموضوع السفور والاختلاط ، وما يتعلق بالمرأة المسلمة ، وجعلوا ذلك شغلهم الشاغل ، ووقفوا ضد تيّارات التحلل والإباحية ، وتبنوا أكثر الأقوال تشدداً فى كل ما يتعلق بالمرأة والأسرة ، ولا سيما ما يتعلق بلقاء الرجل بالمرأة ، وموضوع اللباس والزينة ، وأنكروا على كل مَن قال بإباحة كشف الوجه والكفين ... وكان النشاط فى هذا الميدان هو أكبر همهم وغاية سعيهم .

وأما « الطُرق الصوفية » فبعض رجالها مخلصون صادقون ، وبعض منهم مقلّدون جاهلون ، وآخرون دجّالون مرتزقون ... وحتى المخلصون الصادقون منهم عاشوا فى زاوية ضيقة من زوايا الصرح الإسلامى الكبير ... وكل ما يهمهم هو الجانب الروحى التعبدى الفردى ، أو الاجتماعى المحدود بحدود الطريقة . وإن لم يخل ذلك كله - عند كثير منهم - من الابتداع فى العبادات ، والانحراف فى العقيدة ، والسلبية فى الأخلاق .

هذا هو موقف الجماعات الدينية ، وهذا ما كان يشغلها من قضايا جزئية ، عند ظهور دعوة الأستاذ البنا .

أما أمر الإسلام باعتباره شريعة ونظام حياة ، وأمر المسلمين باعتبارهم أُمة واحدة .

أما غلبة القوانين الوضعية على شريعة الإسلام ، وغلبة الأفكار الأجنبية فى فكرة الإسلام ، وغلبة الإباحية الغربية على تقاليد الإسلام ، وغلبة الاستعمار الصليبى على ديار الإسلام وأمة الإسلام .

أما الشريعة التى أهملت ، والحدود التى عُطِّلت ، والأمة التى مُزِّقت ، والخلافة التى حُطِّمت ... والدين الذى عُزِل عن توجيه الحياة وقيادة المجتمع ..

أما هذا كله ، فلم تشغل هذه الجماعات أنفسها به - على خطورته وأهميته - إلا بصورة ضئيلة ، وفى أحيان ومناسبات نادرة ، نتيجة لوجود بعض الأشخاص الأيقاظ الواعين الذين لم تكن تخلو من عدد منهم جماعة من هذه الجماعات .

كانت جُل هذه الجماعات الدينية - برغم نيَّاتها الطيبة ، وجهودها المشكورة- مع الإسلام أشبه بالعميان الذين صادفوا فيلاً ، فأمسك كل واحد منهم بجزء منه ظنه هو الفيل . فلما سُئِلوا عن وصف الفيل قال أحدهم : إنه عظم مدبب أملس، لأنه لم يمسك إلا بنابه ، وقال الثانى : بل هو جسم ضخم مفرطح ، لأنه قد أمسك ببطنه ، وقال ثالث : بل هو عمود أسطوانى قائم ، لأنه كان قد أمسك برجله . وقال رابع قولاً آخر ، لأنه أمسك بذيله ، وقال خامس غير ما قاله الأربعة ، لأنه أمسك بخرطومه ... وكل واحد من هؤلاء لم يصف الفيل ، وإن قال حقاً فى نفسه ، لأنه وصف ما عرفه منه فحسب ، ولو عرف الفيل كله كما خلقه اللّه ، وكما يعرفه أهل البصر لغَيَّر رأيه ، وعدَّل قوله ووصفه .

وكذلك كان هؤلاء ، ظن بعضهم أن الإسلام فى العقيدة وحدها ... وآخر فى العبادة أولاً ... وثالث فى الحشمة والعفاف قبل كل شئ ... ورابع فى طهارة القلب ... وكل واحد من هذه الأمور صحيح ، ولكنه ليس كل الإسلام ، إنما هو جانب واحد منه .

ولا مانع شرعاً ولا عقلاً من أن تهتم جماعة من الجماعات الإسلامية بجانب واحد من الإسلام ، تتخصص فيه ، وتركِّز عليه نشاطها وجهودها . ويكون الاختلاف بين بعضها وبعض ، اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد [1] . إنما الممنوع

---

(١) عرضت لتوضيح فكرة « اختلاف التنوع والتخصص » بين الجماعات الإسلامية فى أكثر من كتاب لى ، وخصوصاً : أين الخلل ؟ والصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم .

أن تنكر النظرة الشاملة للإسلام ، وأن تعتقد وتشيع أن الجانب الذى تعنى به هو الإسلام وحده . وأن تنكر على الآخرين جهودهم فى الميادين الآخرى ، وألا نتعاون معهم فى القضايا الكبرى .

* * *

● موقف الأحزاب السياسية :

وإلى جوار هذه الجماعات والفرق الدينية ، كانت هناك جماعات من نوع آخر. جماعات سياسية هى التى تسمى « الأحزاب » . كان يغلب على هذه الأحزاب - بصفة عامة - « الوطنية العلمانية » ، فقد سبقت « الوطنية » ظهور « القومية » وخصوصاً في مصر ، وإن لم تخل هذه الأحزاب من رجال متدينين فى خاصة أنفسهم وسلوكهم الشخصى . إذ لم تكن هذه الأحزاب عقائدية بالمعنى الذى عُرِف به بعض الأحزاب بعد ذلك فى بلاد عربية أخرى غير مصر .

وكان معظم قادة الأحزاب من الرجال الذين تثقفوا ثقافة أجنبية عن طريق البعثات إلى أوروبا ، أو عن طريق المدارس الأجنبية والتبشيرية فى أوطانهم نفسها ، أو عن طريق المنهج المسموم الذى وضعه « دنلوب » وأمثاله من المبشرين وأعوان المستعمرين المسيطرين على أزِمَّة التعليم والتوجيه ... وكانت فكرة هؤلاء عن الإسلام صورة مطابقة من فكرة الأوربيين عن المسيحية ، فهو مجرد علاقة بين المرء وربه ، أى هو دين « لاهوتى » محض ، لا علاقة له بنظام الدولة ولا بشئون الحياة والسياسة والحكم ، فهذه تخضع لتطور الزمن ، وتجارب الفكر الإنسانى ، الذى يضيف كل يوم جديداً إلى تُراث الحضارة وحياة الإنسان .

كما أن الفكرة السائدة لدى جمهور المثقفين بالثقافة الحديثة : أن الدين والعلم طريقان متقابلان لا يلتقيان ، وأن الأمة الناهضة التى تريد التقدم بحق هى التى

تسلك سبيل العلم ، وتنشئ عليه أبناءها ، وتقيم بناءها ، وتدع الدين فى ركن قصى من حياتها [1] ، إن كان لا بد من بقائه !

* * *

● مقاومة التجزئة المصطنعة لدعوة الإسلام :

هذا هو الإطار الذى وُضِعَ فيه الإسلام ، وهذا هو الفهم السائد له حين ظهور دعوة الإخوان المسلمين . وكان على مؤسس الدعوة - رحمه الله - أن يواجه هذا الفهم القاصر لرسالة الإسلام ، وأن يُبرز الجانب الثقافى والاجتماعى والسياسى والجهادي منه .

وأن يقاوم هذه التجزئة المصطنعة لدعوته الشاملة . هذه التجزئة التى تريد أن تجعل الإسلام « نصرانية » أخرى تتخذ اسم الإسلام ، وهو منها براء .

لهذا أكد الإمام الشهيد هذا المعنى وكرره فى رسائله ومقالاته وأحاديثه ومحاضراته : معنى « شمول الإسلام » كما شرعه الله ورسوله . وتميُّز بذلك عن سائر الجماعات الأخرى حتى سمى ذلك « إسلام الإخوان المسلمين » كما فى رسالة « المؤتمر الخامس » .

ولا غَرو أن كان الأصل الأول من الأصول العشرين فى رسالة « التعاليم » - التى وضعها حسن البنا ليوضح فيها أركان الدعوة - يقرر ذلك بجلاء ووضوح فيقول : « الإسلام نظام شامل ، يتناول مظاهر الحياة جميعاً ، فهو دولة ووطن أو حكومة وأمة ، وهو خُلُق وقوة أو رحمة وعدالة . وهو ثقافة وقانون أو علم وقضاء ، وهو مادة وثروة أو كسب وغنى ، وهو جهاد ودعوة أو جيش وفكرة ، كما هو عقيدة صادقة وعبادة صحيحة سواءً بسواء » .

---

(١) رددنا على هذا الفهم الخاطئ رداً علمياً مفصلاً فى كتابنا « بينات الحل الإسلامى » فصل « الدين فى عصر العلم » فليرجع إليه . نشرته « مكتبة وهبة » القاهرة و « مؤسسة الرسالة » بيروت.

اهتمت دعوة الإخوان المسلمين بالتركيز على الجوانب الإسلامية التى أُغفلت عمداً أو جهلاً من رسالة الإسلام مثل : الدولة والأمة والجهاد والاقتصاد والثقافة والقانون ... وما إلى ذلك ، بعد أن بذل الاستعمار جهوده الجبارة وأنفق ملايين طائلة ، وربّى تلاميذ مخلصين لأفكاره ، يعملون بكل ما أوتوا لتجريد الإسلام من معنى « الحكم والدولة » كما فعل على عبد الرازق فى كتابه « الإسلام وأصول الحكم » ، وكما طبّق ذلك كمال أتاتورك فى تركيا .. وتجريده من معنى « الجهاد والقوة » كما دعا إلى ذلك غلام أحمد القاديانى فى الهند ، ومَن تبعه من صنائع الإنجليز ، فقد كان كل هم «القاديانى» أن يثبت دعوين كبيرتين :

إحداهما : طاعة ولى الأمر ، ولو كان كافراً .

والثانية : إبطال الجهاد فى سبيل الله .

ولا يستفيد من هاتين الدعويين أحد إلا الاستعمار المتسلط على ديار المسلمين ، المتحكم فى رقابهم ، والمستلب لخيراتهم .

* * *

● لماذا تبنّى الإمام البنا فكرة الشمول ؟:

ولم يكن للإمام البنا وجماعته خيار فى تبنى هذا الشمول لمعنى الإسلام لأسباب ثلاثة :

● شمول تعاليم الإسلام :

الأول : أن الإسلام الذى شرعه الله لم يدع جانباً من الحياة دون آخر ، فهو - بطبيعته - شامل لكل نواحى الحياة ، مادية وروحية ، فردية واجتماعية ، حتى إن أطول آية فى كتاب الله أُنزلت فى شأن من شئون الدنيا هو كتابة

« الديون » : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنْتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ، وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالعَدْلِ ، وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ، فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الحَقُّ .. ﴾ ... الآية [1] .

والقرآن الذى يقول: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ... ﴾[2] هو نفسه الذى يقول فى نفس السورة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِصَاصُ فِى القَتْلَىٰ ﴾ [3] ، وهو الذى يقول فيها : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ المَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْراً الوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالمَعْرُوفِ ﴾ [4] ، ويقول فى ذات السورة : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ، وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ... ﴾ [5] عبر القرآن عن فرضية هذه الأمور كلها بعبارة واحدة : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ﴾ .

فهذه الأمور كلها مما كتبه الله على المؤمنين ، أى فرضه عليهم : الصيام من الأمور التعبدية ، والقصاص فى القوانين الجنائية ، والوصية فيما يسمى «الأحوال الشخصية » ، والقتال فى العلاقات الدولية .

وكلها تكاليف شرعية يتعبد بتنفيذها المؤمنون ، ويتقربون بها إلى الله ، فلا يُتصور من مسلم قبول فرضية الصيام ، ورفض فرضية القصاص أو الوصية أو القتال .

إن الشريعة الإسلامية حاكمة على جميع أفعال المكلّفين ، فلا يخلو فعل ولا واقعة من الوقائع إلا ولها فيها حكم من الأحكام الشرعية الخمسة . كما قرر ذلك الأصوليون والفقهاء من كل الطوائف والمذاهب المنتسبة إلى المِلّة .

---

(١) البقرة ٢٨٢ (٢) البقرة : ١٨٣ (٣) البقرة : ١٧٨

(٤) البقرة : ١٨٠ (٥) البقرة : ٢١٦

وقد دل على هذا الشمول القرآن والسُنَّة ، فقد قال تعالى مخاطباً رسوله ﷺ : ﴿ ونَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (١) .

وقد ثبت أن رسول الله ﷺ ما ترك أمراً يُقرِّبنا من الله إلا وأمرنا به ، ولا ترك أمراً يُبعدنا عن الله إلا نهانا عنه ، حتى تركنا على المحَجَة البيضاء : « ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك » (٢) .

فالإسلام هو رسالة الحياة كلها ، ورسالة الإنسان كله ، كما أنه رسالة العالم كله ، ورسالة الزمن كله (٣) .

● الإسلام يرفض تجزئة أحكامه وتعاليمه :

الثانى : أن الإسلام نفسه يرفض تجزئة أحكامه وتعاليمه وأخذ بعضها دون بعض .

وقد اشتد القرآن فى إنكار هذا المسلك على بنى إسرائيل ، فقال تعالى فى خطابهم : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ، فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى الحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَيَوْمَ القِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ العَذَابِ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٤) .

ولما أحب بعض اليهود أن يدخلوا فى الإسلام بشرط أن يحتفظوا ببعض الشرائع اليهودية ، مثل تحريم يوم السبت ، أبى الرسول عليهم ذلك إلا أن يدخلوا فى شرائع الإسلام كافة .

---

(١) النحل : ٨٩

(٢) من حديث رواه ابن ماجه (٤٣) وأحمد فى مسنده والحاكم من طريقه عن العرباض بن سارية (المستدرك ٩٦/١ ، ٩٧) وابن أبى عاصم فى « السنة » بإسناد حسن كما قال المنذرى .

(٣) انظر فى ذلك : خصيصة « الشمول » من كتابنا « الخصائص العامة للإسلام » وكذلك : «الفهم الشمولى للإسلام والتحذير من تجزئة الإسلام » . من كتابنا : « الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامى » ص ٦٨ - ٩٨ .

(٤) البقرة : ٨٥

وفى ذلك نزل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُوا فِى السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (١) .

وخاطب الله سبحانه رسوله ﷺ فقال : ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ (٢) .

فهنا يُحذِّر الله رسوله من غير المؤمنين أن يصرفوه عن بعض أحكام الإسلام، وهو خطاب لكل مَن يقوم بأمر الأمة من بعده .

والحقيقة أن تعاليم الإسلام وأحكامه فى العقيدة والشريعة والأخلاق والعبادات والمعاملات لا تؤتى أكلها إلا إذا أُخذَت متكاملة ، فإن بعضها لازم لبعض ، وهى أشبه « بوصفة طبية » كاملة مكوَّنة من غذاء متكامل ، ودواء متنوع ، وحمية وامتناع من بعض الأشياء ، وممارسة لبعض التمرينات .. فلكى تحقق هذه الوصفة هدفها ، لا بد من تنفيذها جميعاً . فإن ترك جزء منها قد يؤثر فى النتيجة كلها .

● الحياة وحدة لا تتجزأ ولا تنقسم :

الثالث : أن الحياة نفسها وحدة لا تنقسم ، وكلٌّ لا يتجزأ .

ولا يمكن أن تصلح الحياة إذا تولى الإسلام جزءاً منها كالمساجد والزوايا يحكمها ويوجهها ، وتُركت جوانب الحياة الأخرى لمذاهب وضعية ، وأفكار بَشرية ، وفلسفات أرضية ، توجهها وتقودها .

لا يمكن أن يكون للإسلام المسجد ، ويكون للعلمانية المدرسة والجامعة والمحكمة والإذاعة والتلفاز والصحافة والمسرح والسينما ، والسوق والشارع ، وبعبارة أخرى : الحياة كلها !

---

(١) البقرة : ٢٠٨ - يقول ابن كثير فى تفسير الآية : « يقول الله تعالى آمراً عباده المؤمنين به، المصدقين برسوله ، أن يأخذوا بجميع عرا الإسلام وشرائعه ، والعمل بجميع أوامره ، وترك جميع زواجره ، ما استطاعوا من ذلك »(تفسير ابن كثير جـ ١ / ٢٤٧) ط . دار إحياء التراث العربي بيروت .

(٢) المائدة : ٤٩

كما لا يمكن أن يصلح الإنسان إذا كان توجيه الجانب الروحى له من اختصاص جهة كالدين ، والجانب المادى والعقلى له من اختصاص جهة أخرى كالدولة اللا دينية .

فالواقع أن لا مثنوية فى الإنسان ولا فى الحياة ، فليس فيه ولا فيها انقسام ولا انفصال .

إنه هو الإنسان بروحه ومادته ، فلا فصل ولا تفريق ، كما يؤيد ذلك العلم الحديث نفسه . وكذلك الحياة .

إن الإنسان لا ينقسم ، والحياة أيضاً لا تنقسم .

وكل الفلسفات والمذاهب الثورية أو « الإيديولوچيات » الانقلابية فى التاريخ وفى عصرنا ذات طابع كلى شمولى ، ولهذا ترفض تجزئة الحياة ، وتأبى أن تسيطر على جزء منها دون جزء ، بل لا بد أن تقودها كلها ، وتوجهها جميعاً وفقاً لفلسفتها . ونظرتها الكلية للوجود وللمعرفة وللقيم ، وللّه والإنسان والتاريخ .

يقول أحد الاشتراكيين العرب المعروفين [1] فى تبرير هذا الاتجاه :

« إن فهم الاشتراكية على أنها نظام اقتصادى فحسب ، هو فهم خاطئ ؛ فالاشتراكية تقدِّم حلولاً اقتصادية لمسائل كثيرة ، ولكن هذه الحلول جميعاً ليست إلا ناحية واحدة من نواحى الاشتراكية ، وفهمها على أساس هذه الناحية الواحدة فهم خاطئ لا ينفذ إلى الأعماق ، ولا يتعرف إلى الأسس التى تقوم عليها الاشتراكية ، ولا يتطلع إلى الآمال البعيدة التى تذهب إليها الاشتراكية » .

---

(١) هو الدكتور منيف الرزاز - الذى انتخب زمناً ما أميناً عاماً لحزب البعث الاشتراكى العربى فى كتاب « دراسات فى الاشتراكية » الذى صدر عام ١٩٦٠ ، ويحمل مقالات لعدد من قادة « البعث » .

« .. فالاشتراكية مذهب للحياة ، لا مذهب للاقتصاد ، مذهب يمتد إلى الاقتصاد والسياسة والتربية والتعليم والاجتماع والصحة والأخلاق والأدب والعلم والتاريخ ، وإلى كل أوجه الحياة كبيرها وصغيرها .

وأن تكون اشتراكياً يعنى أن يكون لك فهم اشتراكى لكل هذا الذى ذكرت ، وأن يكون لك كفاح اشتراكى يضم كل هذا الذى ذكرت » .

ثم يؤكد الكاتب أن هذه النظرة الشاملة ليست مقصورة على الاشتراكية ، وإنما هى الأساس فى المذاهب الاجتماعية الأخرى .

ولقد برر الكاتب شمول المذاهب الاجتماعية ، واتساع نطاقها بحيث تتسع إلى كل المجالات ، وأن تضع الحلول لكل المشكلات بأن :

« .. سبب هذه النظرة الشاملة - أن الحياة نفسها شئ واحد .. تيار واحد لا يعرف هذا التقسيم الذى يخترعه عقلنا ، لكى يسهّل على نفسه إدراك حقائق الحياة ، ثم ينسى أنه هو نفسه الذى قام بهذا التقسيم ، ويظن أن الحياة كانت مقسمة هكذا منذ الأزل .

فالحياة لا تعرف شيئاً اسمه الاقتصاد ، منفصلاً عن شئ اسمه الاجتماع ، وشئ آخر اسمه السياسة .

الحياة شئ متكامل متصل ، ولكن عقلنا العاجز المغرم بالتحليل والدرس ، لن يتمكن من القيام بهذا التحليل والدرس ، إذا واجه الحياة ككل قائم بذاته ، فهو مضطر إلى أن يقسم الحياة إلى أوجه ، وإلى ألوان ، وإلى أنواع من العلاقات ، فيسمى بعضها اقتصاداً ، ويسمى بعضها الآخر سياسة ، وبعضها اجتماعاً ، وأخلاقاً ، ودينياً ، وتاريخاً ، وأدباً ، وعلماً ... إلى آخر هذه السلسلة إن كان لها آخر ..

الحياة ... كالنهر ، شئ واحد متصل مستمر ... وكذلك حياة أى مجتمع ، كبير أو صغير - أمة أو أسرة ، حكومة أو حزب .

فموقف أى مجتمع إزاء الحريات السياسية يقرر موقفه من الاقتصاد ، وموقفه من النظم الاقتصادية يقرر موقفه من الحريات السياسية ، وكذلك من الاستعمار ومن الأخلاق ومن التعليم ومن الأدب ومن التاريخ ... إلى آخر هذه السلسلة التى لا تنتهى » .

ويخلص الكاتب من ذلك إلى تأكيد الصفة الشاملة للاشتراكية فيقول :

« .. بهذا المعنى ، تصبح كلمة الاشتراكية إذن كلمة لا تقتصر على التعبير عن حالة اقتصادية معيَّنة فحسب ، بل هى تعبير عن نوع من الحياة بأكملها بجميع وجوهها » ا هـ .

هذه هى طبيعة الأيديولوچيات الانقلابية كلها ، فلماذا يُراد للإسلام وحده - وهو بطبيعته رسالة شاملة : عقيدة وشريعة وأخلاقاً وحضارة - أن يقصر رسالته على المساجد والمحاكم الشرعية ؟!

ولعله لو رضى بذلك ، ما تركوه يستقل بهذه المساجد يوجهها كما يريد ، ولا تلك المحاكم يقضى فيها بما يشاء [1] .

إن المسيحية التى يقول إنجيلها : « دع ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله » حين وجدت الفرصة والقوة ، لم يسعها أن تدع شيئاً لقيصر ، ولم تستطع إلا أن تسود ، وتوجه الحياة كلها الوجهة التى تؤمن بها ، مثل كل الأيديولوچيات الدينية والعلمانية قديماً وحديثاً .

---

(١) فى عدد من بلاد المسلمين اعتدت الحكومات العلمانية على الجزء الباقى لهم من التشريع وهو المتعلق بالأسرة أو ما سمى « الأحوال الشخصية » ، كما أن المسجد لم يعد حراً فى أن يقول كلمة الإسلام كما يشاء ، بل كما تشاء السلطة !!

فإذا كان هذا شأن المسيحية ، فكيف بالإسلام الذى يأبى أن يقسم الإنسان بين مادة وروح منفصلتين ، أو يقسم الحياة بين اللّه وقيصر ، وإنما يجعل قيصر وما لقيصر للّه الواحد الأحد ؟!

﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الكِتَابَ مُفَصَّلاً ﴾ (١).

﴿ أَفَحُكْمَ الجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (٢)

* * *

● جوانب أساسية فى الإسلام الشامل :

أشار الإمام البنا فى الأصل الأول من أصوله العشرين إلى عدة جوانب ، اعتبرها أساسية فى الإسلام الشامل كما يفهمه وكما يؤمن به .

من هذه الجوانب :

١ - الجانب السياسى : وهو ما عبرَّ عنه بقوله : « فهو دولة ووطن أو حكومة وأمة ».

٢ - الجانب الأخلاقى : وهو ما عبرَّ عنه بقوله : « وهو خُلُق وقوة أو رحمة وعدالة » .

٣ - الجانب الثقافى أو العلمى .

٤ - وكذلك القانونى أو القضائى .

وهما ما عبَّر عنهما بقوله : « وهو ثقافة وقانون أو علم وقضاء » .

٥ - وكذلك الاقتصادى أو المادى : وهو ما عبَّر عنه بقوله : « وهو مادة وثروة أو كسب وغنى » .

---

(١) الأنعام : ١١٤ (٢) المائدة : ٥٠

٦ - الجانب الجهادى

٧ - وكذلك الجانب الدعوى .

وهما ما عبَّر عنهما بقوله : « وهو جهاد ودعوة أو جيش وفكرة » .

٨ ، ٩ - وهذا إلى الجانبين الأساسيين فى كل دين ، وهو ما عبَّر عنهما بقوله : « كما هو عقيدة صادقة ، وعبادة صحيحة ، سواءً بسواء » .

وهذه الجوانب كلها واضحة تمام الوضوح فى ذهن الأستاذ البنا ، وهى من الثبوت لديه ، والرسوخ فى عقله وقلبه ، بحيث تُعَد من اليقينيات أو البديهيات الدينية ، والأدلة عليها من الكتاب والسُنَّة ، وهدى السَلف ، وأقوال الأئمة ، أكثر من أن تُحصر .

ولهذا ظل يؤكدها كل التأكيد فى كل مناسبة ، ليتعلم الجاهل ، ويتنبه الغافل ، ويتذكر الناسى ، ويتثبّت المرتاب ، ويزداد الذين آمنوا إيماناً .

أكَّدها فى بياناته ومؤتمراته العامة ، وفى لقاءاته وجلساته الخاصة ، وفى دروسه ومحاضراته ، وفى رسائله ومقالاته .

وما نُشِرَ من رسائل البنا أبين برهان على ما نقول .

نقرأ ذلك فى رسالة المؤتمر الخامس (وقد انعقد سنة ١٣٥٧ هـ) الذى تحدَّث فيها عن « إسلام الإخوان المسلمين » بشموله وتكامله [١] ، مبيناً شمول الفكرة ، وشمول الحركة أيضاً ، وتنوع أنشطتها التى استوعبت كل جوانب الحياة تقريباً.

وفى مؤتمر طلبة الإخوان المسلمين الذى انعقد فى نفس السنة ، وقد تحدَّث فيه عن الإسلام الشامل ، وعن الدين والسياسة ، داخلية أو خارجية ، وعن سعة التشريع الإسلامى .

---

(١) انظر : نص كلام الإمام الشهيد فى الملحق آخر الكتاب .

وفى رسالة « نحو النور » الذى بعث بها إلى الملك فاروق ، وإلى رئيس حكومة مصر ، وإلى عدد من الملوك والرؤساء والشخصيات البارزة فى العالم الإسلامى (وذلك فى سنة ١٣٦٦ هـ) مبيِّناً فيها : أن الإسلام كفيل بإمداد الأمة الناهضة بكل ما تحتاج إليه .

وفى رسالة « مشكلاتنا فى ضوء النظام الإسلامى » وهى فى الأصل مقالات كتبها فى جريدة « الإخوان المسلمون » اليومية ، موجهة إلى المسئولين ورجال الهيئات الرسمية والنيابية والشعبية والاجتماعية وموجهى الجماهير .

ولن أتعرض هنا لشرح الجوانب التسعة - أو على الأقل السبعة الأول المقصودة بالذكر - فى الأصل الأول ، لأن شرحها يعنى شرح الإسلام كله .

وحسبى هنا أن أُركِّز على جانبين على غاية من الأهمية ، ركَّز عليهما الشهيد البنا ، لما رأى جهل كثير من مسلمى عصره بهما ، وغفلتهم عنهما .

هذان الجانبان هما : الدولة والجهاد ، أو الجانب السياسي والجانب الجهادى، ومكانهما من الإسلام .

فلنخص كلا منهما بحديث ، على قدر ما يتسع المقام .

● مكانة الدولة من الإسلام :

« الإسلام دولة ووطن أو حكومة وأمة » هذا أول ما أكَّده حسن البنا فى بيان فكرة الشمول .

إن إعلان هذه الحقيقة وتأكيد هذه القضية : « أن الإسلام دولة ووطن كما هو عقيدة وعبادة » كان إحدى السمات البارزة التى تميَّزت بها الدعوة الإسلامية منذ ظهورها . أكَّد الشهيد البنا هذا المعنى فى جميع رسائله ، وكتاباته ومحاضراته. وكان لهذا التأكيد أسبابه - كما ذكرنا من قبل - .

فقد استطاع الاستعمار الصليبى الذى حكم بلاد المسلمين أن يغرس فى أفكار الكثيرين من أبناء المسلمين فكرة غريبة خبيثة مؤداها : أن الإسلام دين

لا دولة . « دين » بالمفهوم الغربى لكلمة « الدين » أما شئون الدولة فلا صلة له بها . وإنما ينظمها العقل الإنسانى وفقاً لتجاربه وظروفه المتطورة !

لقد أرادوا أن يُطبِّقوا على الإسلام فى الشرق ، ما طُبِّقَ على المسيحية فى الغرب . فكما أن النهضة هناك لم تتم إلا بعد التحرر من سلطان الدين ، فكذلك يجب أن تقوم النهضة فى شرقنا العربى الإسلامى على أنقاض الدين !

مع أن الدين هناك معناه الكنيسة وسلطة البابا ، واستبداد رجال الكهنوت بالضمائر والأرواح . فأين هذا من الدين هنا ، وليس فيه بابا ولا كهنوت ولا استبداد بالضمائر والأرواح ؟! [1]

على كل حال ، لقد نجح الاستعمار فى خلق فئات تؤمن أن الدين لا مكان له فى توجيه الدولة وتنظيمها ، وأن الدين شئ والسياسة شئ آخر ، وأن هذا يجرى على الإسلام ، كما جرى على المسيحية . وكان من الشعارات المضللة التى شاعت أن « الدين لله والوطن للجميع » ! وهى كلمة حق يُراد بها باطل ، ويمكن أن تقلب على كل الوجوه ، فنستطيع أن نقول : إن الدين لله والوطن لله ، أو : الدين للجميع والوطن للجميع ، أو : الدين للجميع والوطن لله !

وإنما مرادهم بكلمة « الدين لله » أن الدين مجرد علاقة بين ضمير الإنسان وربه ، ولا مكان له فى نظام الحياة والمجتمع .

وكان أبرز مثل عملى لذلك هو « الدولة العلمانية » التى أقامها كمال أتاتورك فى تركيا ، وفرضها بالحديد والنار والدم على مجموع الشعب التركى المسلم ، بعد تحطيم الخلافة العثمانية آخر حصن سياسى بقى للإسلام بعد صراع القرون ، مع الصليبية واليهودية العالمية .

---

(١) انظر : فصل « دين لا دولة » من كتاب « الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى » للدكتور محمد البهى ، وانظر : فصل « دولة إسلامية لا دولة دينية » من كتابنا « بينات الحل الإسلامى وشبهات العلمانيين والمتغربين » .

وقد أخذت الحكومات فى البلاد الإسلامية الأخرى تقلد تركيا الجديدة ، على درجات متفاوتة ، فأقصى الإسلام عن الحكم والتشريع فى الأمور الجنائية والمدنية ونحوها ، وبقى محصورا فيما سمى « الأحوال الشخصية » كما أُقصى عن التوجيه والتأثير فى الحياة الثقافية والتربوية والاجتماعية إلا فى حدود ضئيلة. وفسح المجال كل المجال للتوجيه الغربى والثقافة الغربية والتقاليد الغربية .

ولم يخف بعض الزعماء السياسيين العرب إعجابهم باتجاه أتاتورك ، حتى إن زعيم حزب مصرى كبير معروف ، ورئيس وزراء حينذاك قال فى تصريح له : إننى معجب بلا تحفظ بكمال أتاتورك وفهمه لمعنى الدولة الحديثة .. ورد عليه المرشد الشهيد فى خطاب معروف ، نشرته جريدة « الإخوان المسلمون » اليومية فيما بعد .

وكان من أبرز المظاهر لنجاح الغزو الثقافى الغربى أن « الفكر العلمانى » الدخيل الذى ينادى بفصل الدين عن الدولة ، لم يقف عند الرجال « المدنيين » وحدهم ، بل تعداهم إلى بعض الذين درسوا دراسة دينية فى معهد إسلامى عريق كالأزهر ، كما تجلى ذلك فى كتاب الشيخ على عبد الرازق « الإسلام وأصول الحكم » .

ومن الإنصاف أن نقول : إن هذا الكتاب قد أحدث ضجة هائلة حين صدروه ، فى المجتمع عامة ، وفى الأزهر خاصة ، وقد شُكِّلت هيئة من علماء الأزهر لمحاكمة مؤلفه ، فقضت بتجريده من شهادة العالمية ، وإخراجه من زُمرة العلماء ، كما رد عليه كثير من العلماء والمفكرين أزهريين وغير أزهريين [1] .

كان لا بد إذن من تأكيد الوقوف فى وجه العلمانية ودعاتها ومبرريها ، بتأكيد شمول الإسلام ، وإبراز هذا الجانب الحى من أحكامه وتعاليمه : جانب

---

(١) ممن ردوا عليه العلأمة المجاهد محمد الخضر حسين ، شيخ الأزهر الأسبق فى كتاب سماه «نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم » .

الدولة ، وتنظيمها وتوجيهها بأحكامه وآدابه . وإعلان أن ذلك جزء لا يتجزأ من نظام الإسلام .

* * *

● الدليل من نصوص الإسلام :

ولم يكن هذا ابتكاراً من الحركة الإسلامية ومؤسسها ودعاتها . بل هو ما تنطق به نصوص الإسلام القاطعة ، ووقائع تاريخه الثابتة ، وطبيعة دعوته الشاملة .

أما نصوص الإسلام فحسبنا منها آيتان من سورة النساء : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ الأَمَانَات إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالعَدْلِ ، إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِه ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ ، فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ (١) .

فالخطاب فى الآية الأولى للولاة والحكّام : أن يرعوا الأمانات ويحكموا بالعدل ، فإنّ إضاعة الأمانة والعدل نذير بهلاك الأمة وخراب الديار . ففى الصحيح : « إذا ضُيِّعَت الأمانة فانتظروا الساعة ». قيل : وكيف إضاعتها ؟ قال : « إذا وُسِّدَ الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة » (٢)

والخطاب فى الآية الثانية للرعية المؤمنين : أن يطيعوا « أُولى الأمر » بشرط أن يكونوا « منهم » وجعل هذه الطاعة بعد طاعة اللّه وطاعة الرسول ، وأمر عند التنازع برد الخلاف إلى اللّه ورسوله ، أى إلى الكتاب والسُنّة . وهذا يفترض أن يكون للمسلمين دولة تهيمن وتُطاع ، وإلا لكان هذا الأمر عبثاً .

---

(١) النساء : ٥٨ - ٥٩

(٢) رواه البخارى فى كتاب العلم (حديث ٥٩ الفتح جـ ١٤١/١) عن أبى هريرة . وذكره فى كتاب « الرقاق » .

وفى ضوء الآيتين المذكورتين ألّف شيخ الإسلام ابن تيمية كتابه المعروف « السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية » والكتاب كله مبنى على الآيتين الكريمتين .

وإذا ذهبنا إلى السُنّة ، رأينا الرسول ﷺ يقول : « مَن مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية » [1] . ولا ريب أنّ من المحرَّم على المسلم أن يبايع أى حاكم لا يلتزم بالإسلام . فالبيعة التى تنجيه من الإثم أن يبايع مَن يحكم بما أنزل اللّه .. فإذا لم يوجد ذلك فالمسلمون آثمون حتى يتحقق الحكم الإسلامى ، وتتحقق به البيعة المطلوبة . ولا ينجى المسلم من هذا الإثم إلا أمران : الإنكار - ولو بالقلب - على هذا الوضع المنحرف المخالف لشريعة الإسلام ..

والسعى الدائب لاستئناف حياة إسلامية قويمة ، يوجهها حكم إسلامى صحيح.

وجاءت عشرات الأحاديث الصحيحة عن الخلافة والإمارة والقضاء والأئمة وصفاتهم وحقوقهم من الموالاة والمعاونة على البر ، والنصيحة لهم وطاعتهم فى المنشط والمكره ، والصبر عليهم ، وحدود هذه الطاقة وهذا الصبر ، وتحديد واجباتهم من إقامة حدود اللّه ورعاية حقوق الناس ، ومشاورة أهل الرأى ، وتولية الأقوياء الأمناء ، واتخاذ البطانة الصالحة ، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .. إلى غير ذلك من أمور الدولة وشئون الحكم والإدارة والسياسة .

ولهذا رأينا شئون الإمامة والخلافة تُذكر فى كتب العقائد وأصول الدين ، كما رأيناها تُذكر فى كتب الفقه ، كما رأينا كتباً خاصة بشئون الدولة الدستورية والإدارية والمالية والسياسية ، كالأحكام السلطانية للماوردى ، ومثله لأبى يعلى ، والغياثى لإمام الحرمين ، والسياسة الشرعية لابن تيمية ، وتحرير الأحكام

---

(١) رواه مسلم عن ابن عمر فى كتاب الإمارة - حديث رقم (١٨٥١) .

لابن جماعة ، والخراج لأبى يوسف ، ومثله ليحيى بن آدم ، والأموال لأبى عبيد ، ومثله لابن زنجويه ... وغير ذلك مما أُلّف ليكون مرجعاً للقضاة والحكّام كالطُرق الحكمية ، والتبصرة ، ومعين الحكّام . وما شابهها .

* * *

● الدليل من تاريخ الإسلام :

أما تاريخ الإسلام .. فينبئنا أن رسول اللّه ﷺ سعى بكل ما استطاع من قوة وفكر - مؤيّداً بهداية الوحى - إلى إقامة دولة للإسلام ، ووطن لدعوته ، خالص لأهله ، ليس لأحد عليهم فيه سلطان ، إلا سلطان الشريعة . ولهذا كان يعرض نفسه على القبائل ليؤمنوا به ويمنعوه ويحموا دعوته ، حتى وفّق اللّه « الأنصار » من الأوس والخزرج إلى الإيمان برسالته ، فلما انتشر فيهم الإسلام جاء وفد منهم إلى موسم الحج مكوّن من ٧٣ رجلاً وامرأتين ، فبايعوه - صلى اللّه عليه وسلم - على أن يمنعوه مما يمنعون أنفسهم وأزواجهم وأبناءهم ، وعلى السمع والطاعة ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .. إلخ .. فبايعوه على ذلك .. وكانت الهجرة إلى المدينة ليست إلا سعياً لإقامة المجتمع المسلم المتيّز ، تشرف عليه دولة مسلمة متميزة .

كانت « المدينة » هى « دار الإسلام » وقاعدة الدولة الإسلامية الجديدة ، التى يرأسها رسول اللّه ﷺ فهو قائد المسلمين وإمامهم ، كما إنه نبيهم ورسول اللّه إليهم .

وكان الانضمام إلى هذه الدولة ، لشد أزرها ، والعيش فى ظلالها ، والجهاد تحت لوائها ، فريضة على كل داخل فى دين الإسلام حينذاك . فلا يتم إيمانه إلا بالهجرة إلى دار الإسلام ، والخروج من دار الكفر والعداوة للإسلام ، والانتظام فى سلك الجماعة المؤمنة المجاهدة التى رماها العالَم عن قوس واحدة .

يقول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ ﴾ [1] . ويقول فى شأن قوم : ﴿ فَلا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُواْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [2] .

كما نزل القرآن الكريم يندد أبلغ تنديد بأولئك الذين يعيشون مختارين فى دار الكفر والحرب ، دون أن يتمكنوا من إقامة دينهم وأداء واجباتهم وشعائرهم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِى أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى الأَرْضِ ، قَالُواْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ، فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمَ ، وَسَاءَتْ مَصِيراً * إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً * فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ، وَكَانَ اللَّهُ عَفُوّاً غَفُوراً ﴾ [3] .

وعند وفاة النبى ﷺ كان أول ما شغل أصحابه رضى الله عنهم ، أن يختاروا « إماماً » لهم ، حتى إنهم قدّموا ذلك على دفنه - صلى الله عليه وسلم - فبادروا إلى بيعة أبى بكر ، وتسليم النظر إليه فى أمورهم ، وكذا فى كل عصر من بعد ذلك ، وبهذا الإجماع التاريخى ابتداءً من الصحابة والتابعين - مع ما ذكرنا من النصوص - استدل علماء الإسلام على وجوب نصب الإمام الذى هو رمز الدولة الإسلامية وعنوانها .

ولم يعرف المسلمون فى تاريخهم انفصالاً بين الدين والدولة إلا عندما نجم قرن العلمانية فى هذا العصر ، وهو ما حذر الرسول ﷺ منه ، وأمر بمقاومته كما فى حديث معاذ : « ألا إنّ رحى الإسلام دائرة ، فدوروا مع الإسلام حيث دار ،

---

(١) الأنفال : ٧٢

(٢) إن بديل الهجرة إلى الدولة المسلمة هو الإنضام إلى الجماعة المسلمة التى تعمل لإقامة دولة الإسلام فهو فريضة على كل مسلم بحسب وسعه - والآية من سورة النساء : ٨٩

(٣) النساء : ٩٧ - ٩٩

ألا إن القرآن والسلطان سيفترقان (أى الدين والدولة) فلا تفارقوا الكتاب . ألا إنه سيكون عليكم أمراء يقضون لأنفسهم ما لا يقضون لكم ، فإن عصيتموهم قتلوكم ، وإن أطعتموهم أضلوكم » . قالوا : وماذا نصنع يا رسول الله ؟ قال : « كما صنع أصحاب عيسى ابن مريم : نُشِروا بالمناشير ، وحُمِلوا على الخُشب . موت فى طاعة الله خير من حياة فى معصية الله »[1] .

* * *

● الدليل من طبيعة الإسلام :

أما طبيعة الإسلام ورسالته ، فذلك أنه دين عام ، وشريعة شاملة ، وشريعة هذه طبيعتها لا بد أن تتغلغل فى كافة نواحى الحياة ، ولا يتصوّر أن تهمل شأن الدولة ، وتدعها للمتحللين والملحدين ، أو الفسقة ، يديرونها تبعاً للهوى .

كما إن هذا الدين يدعو إلى التنظيم وتحديد المسئولية ، ويكره الاضطراب والفوضى فى كل شئ ، حتى رأينا الرسول ﷺ يأمرنا فى الصلاة أن نسوِّى الصفوف وأن يؤمّنا أعلمنا ، وفى السفر يقول : أمّروا أحدكم .

يقول الإمام ابن تيمية فى « السياسة الشرعية » : يجب أن يُعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين ، بل لا قيام للدين ولا للدنيا إلا بها . فإن بنى آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع ، لحاجة بعضهم إلى بعض ، ولا بد عند الاجتماع من رأس . حتى قال النبى ﷺ : « إذا خرج ثلاثة فى سفر ، فليؤمّروا أحدهم » (رواه أبو داود من حديث أبى سعيد وأبى هريرة[2]). وروى الإمام

---

(١) رواه إسحاق بن راهويه فى مسنده عن سويد بن عبد العزيز ، وهو ضعيف ، وأحمد بن منيع ورواته ثقات كما قال البوصيرى فى « الاتحاف » . انظر : المطالب العالية لابن حجر بتحقيق الشيخ حبيب الرحمن الأعظمى - نشر أوقاف الكويت جـ ٤ حديث (٨. ٤٤) ورواه الطبرانى ، وفيه يزيد بن مرثد لم يسمع من معاذ ، وثقه ابن حبان وغيره وضعفه جماعة ، وبقية رواته ثقات . انظر : مجمع الزوائد للهيثمى (٥ /٢٣٨) .

(٢) ورواه الطبرانى عن عبد الله ، ورجاله رجال الصحيح كما فى مجمع الزوائد (٥ / ٢٤٩).

أحمد عن عبد الله بن عمرو أن النبى ﷺ قال : « لا يحل لثلاثة أن يكونوا بفلاةٍ من الأرض إلا أمّروا عليهم أحدهم » فأوجب ﷺ تأمير الواحد فى الاجتماع القليل العارض فى السفر ، تنبيهاً بذلك على سائر أنواع الاجتماع .

« ولأن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة ، وكذلك سائر ما أوجبه من الجهاد والعدل ، وإقامة الحج والجُمَع والأعياد ، ونُصرة المظلوم ، وإقامة الحدود ، لا تتم إلا بالقوة والإمارة . ولهذا روى : « إن السلطان ظل الله فى الأرض » . ولهذا كان السَلَف كالفضيل بن عياض وأحمد بن حنبل وغيرهما يقولون : لو كانت لنا دعوة مجابة ، لدعونا بها للسلطان » [1] . وذلك لأن الله يُصلح بصلاحه خلقاً كثيراً .

ثم إن طبيعة الإسلام باعتباره منهجاً يريد أن يسود ويقود ويُوجِّه الحياة ، ويحكم المجتمع ، ويضبط سير البَشر وفق أوامر الله ، لا يُظن به أن يكتفى بالخطابة والتذكير والموعظة الحسنة ، ولا أن يدع أحكامه ووصاياه وتعليماته فى شتّى المجالات إلى ضمائر الأفراد وحدها ، فإذا سقمت هذه الضمائر أو ماتت ، سقمت معها وماتت تلك الأحكام والتعاليم . وقد قال الخليفة الثالث رضى الله عنه : « إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » .

فمن الناس مَن يهديه الكتاب والميزان ، ومنهم مَن لا يردعه إلا الحديد والسنان . ولذا قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ [2] .

---

(١) السياسة الشرعية ، ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية جـ ٢٨ ص ٣٩٠ ، ٣٩١

(٢) الحديد : ٢٥

قال ابن تيمية : فمن عَدَل عن الكتاب عُدِّلَ بالحديد ، ولهذا كان قوام الدين بالمصحف والسيف [١] .

وقال الإمام الغزالى : الدنيا مزرعة الآخرة ، ولا يتم الدين إلا بالدنيا ، والملك والدين توأمان ، فالدين أصل ، والسلطان حارس ، وما لا أصل له فمهدوم ، وما لا حارس له فضائع ، ولا يتم الملك والضبط إلا بالسلطان [٢] .

إن نصوص الإسلام لو لم تجئ صريحة بوجوب إقامة دولة للإسلام ، ولم يجئ تاريخ الرسول وأصحابه تطبيقاً عملياً لما دعت إليه هذه النصوص - لكانت طبيعة الرسالة الإسلامية نفسها تحتم أن تقوم للإسلام دولة أو دار ، يتميَّز فيها بعقائده وشعائره وتعاليمه ومفاهيمه ، وأخلاقه وفضائله ، وتقاليده وتشريعاته .

فلا غنى للإسلام عن هذه الدولة المسئولة فى أى عصر ، ولكنه أحوج ما يكون إليها فى هذا العصر خاصة . هذا العصر الذى برزت فيه « الدولة الأيديولوچية » وهى الدولة التى تتبنى فكرة ، يقوم بناؤها كله على أساسها ، من تعليم وثقافة وتشريع وقضاء واقتصاد ، إلى غير ذلك من الشئون الداخلية والسياسية الخارجية . كما نرى ذلك واضحاً فى الدولة الشيوعية والاشتراكية . وأصبح العلم الحديث بما وفره من تقدم تكنولوچى فى خدمة الدولة ، وأصبحت الدولة بذلك قادرة على التأثير فى عقائد المجتمع وأفكاره وعواطفه وأذواقه وسلوكه بصورة فعَّالة ، لم يُعرف لها مثيل من قبل . بل تستطيع الدولة بأجهزتها الحديثة الموجهة أن تغيِّر قيم المجتمع ومُثُله وأخلاقه رأساً على عقب ، إذا لم تقم فى سبيلها مقاومة أشد .

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ٢٨ ص ٢٦٤

(٢) إحياء علوم الدين جـ ١/٧١ كتاب « العلم » .

إن دولة الإسلام « دولة فكرية » ، دولة تقوم على عقيدة ومنهج ، فليست مجرد « جهاز أمن » يحفظ الأمة من الاعتداء الداخلى أو الغزو الخارجى ، بل إن وظيفتها لأعمق من ذلك وأكبر . وظيفتها تعليم الأمة وتربيتها على تعاليم ومبادئ الإسلام ، وتهيئة الجو الإيجابى والمناخ الملائم ، لتحول عقائد الإسلام وأفكاره وتعاليمه إلى واقع عملى ملموس ، يكون قدوة لكل مَن يلتمس الهدى، وحُجَّة على كل سالك سبيل الردى .

ولهذا يُعرِّف ابن خلدون « الخلافة » بأنها : حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها ، إذ أحوال الدنيا ، ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة . فهى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا به [١] .

ولهذا وصف الله المؤمنين حين يمكّن لهم فى الأرض ، وبتعبير آخر حين تقوم لهم دولة ، فقال : ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ وَأَمَرُواْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ [٢] .

إن شعار دولة الإسلام ما قاله ربعى بن عامر لرستم قائد الفُرس : إنَّ الله بعثنا لنُخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .

ثم إن هذه الدولة الفكرية ليست ذات صفة محلية ، ولكنها دولة ذات رسالة عالَمية ، لأن الله حمّل أمة الإسلام دعوة البَشرية إلى ما لديها من هدى ونور ، وكلّفها الشهادة على الناس ، والأستاذية للأمم ، فهى أمة لم تنشأ بنفسها ولا لنفسها فحسب ، بل أُخرجت للناس ، أخرجها الله الذى جعلها خير أمة

(١) مقدمة ابن خلدون جـ ٢ صفحة ٥١٨ طبعة لجنة البيان العربى بتحقيق د . على عبد الواحد وافى .

(٢) الحج : ٤١

وخاطبها بقوله سبحانه : ﴿ وكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ (١) .

ومن هنا وجدنا النبى ﷺ حين أُتيحت له أول فرصة - بعد صلح الحديبية - كتب إلى ملوك العالم وأمراء الأقطار فى أركان الأرض يدعوهم إلى الله ، والانضواء تحت راية التوحيد ، وحمّلهم إثم أنفسهم وإثم رعيتهم إذا تخلّفوا عن ركب الإيمان ، وكان يختم رسائله بهذه الآية : ﴿ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَينَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّنْ دُونِ اللَّهِ ، فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (٢) .

* * *

● حاجتنا إلى دولة تحتضن الإسلام :

إن أول ما تحتاج إليه الدعوة الإسلامية فى هذا العصر أن تقوم « دار الإسلام » أو « دولة الإسلام » تتبنى رسالة الإسلام عقيدة ونظاماً ، وحياة وحضارة . وتقيم حياتها كلها : المادية والأدبية ، على أساس من هذه الرسالة الشاملة ، وتفتح بابها لكل مؤمن يريد الهجرة من ديار الكفر والظلم والابتداع .

هذه الدولة المنشودة ضرورة إسلامية ، وهى أيضاً ضرورة إنسانية ، لأنها ستقدّم للبشرية المثل الحى ، لاجتماع الدين والدنيا ، وامتزاج المادة بالروح ، والتوفيق بين الرقى الحضارى ، والسمو الأخلاقى ، وتكون هى اللبنة الأولى لقيام دولة الإسلام الكبرى ، التى توحّد الأمة المسلمة تحت راية القرآن ، وفى ظل خلافة الإسلام . ولكن القوى المعادية للإسلام ، تبذل جهوداً جبارة مستميتة دون قيام هذه الدولة فى أى رقعة من الأرض ، وإن صغرت مساحتها وقَلّ سكانها .

---

(١) البقرة : ١٤٣ (٢) آل عمران : ٦٤

قد يسمح الغربيون بدولة ماركسية ، وقد يسمح الشيوعيون بدولة ليبرالية ، ولكن لا هؤلاء ولا أولئك يسمحون بدولة إسلامية صحيحة الإسلام .

وحين تقوم حركة إسلامية ناجحة ، يُخشى أن تتحول إلى دولة ، سرعان ما توجّه إليها قوى الكفر - العالمية والمحلية - ضرباتها المحمومة ، من تشريد وتجويع وتعذيب وتقتيل ، وتشويه وتمويه ، ولا تكاد تفيق من ضربة حتى يباغتوها بأخرى ، لتظل دائماً فى شغل بآلامها عن آمالها ، وبمتاعبها عن مطالبها ، وبجروحها عن طموحها .

* * *

• لو كانت لنا حكومة :

يقول الأستاذ البنا :

« لو كانت لنا حكومة إسلامية صحيحة الإسلام ، صادقة الإيمان ، مستقلة التفكير والتنفيذ ، تعلم حق العلم عظمة الكنز الذى بين يديها ، وجلال النظام الإسلامى الذى ورثته ، وتؤمن بأن فيه شفاء شعبها ، وهداية الناس جميعاً ... لكان لنا أن نطلب إليها أن تدعم الدنيا باسم الإسلام ، وأن تطالب غيرها من الدول بالبحث والنظر فيه ، وأن تسوقها سوقاً إليه بالدعوات المتكررة والإقناع والدليل والبعثات المتتالية ، وبغير ذلك من وسائل الدعوة والإبلاغ ، ولاكتسبت مركزاً روحياً وسياسياً وعملياً بين غيرها من الحكومات . ولاستطاعت أن تجدد حيوية الشعب ، وتدفع به نحو المجد والنور ، وتثير فى نفسه الحماسة والجد والعمل .

عجيب أن تجد الشيوعية دولة تهتف بها ، وتدعو إليها ، وتُنفق فى سبيلها ، وتحمل الناس عليها . وأن تجد الفاشستية والنازية أمماً تقدسها ، وتجاهد لها ، وتعتز باتباعها ، وتخضع كل النظم الحيوية لتعاليمها . وأن تجد المذاهب

الاجتماعية والسياسية المختلفة أنصاراً أقوياء ، يقفون عليها أرواحهم وعقولهم وأفكارهم وأقلامهم وأموالهم وصحفهم وجهودهم ، ويحيون ويموتون لها .

ولا نجد حكومة إسلامية تقوم بواجب الدعوة إلى الإسلام ، الذى جمع محاسن هذه النظم جميعاً وطرح مساوئها ، وتقدمه لغيرها من الشعوب كنظام عالمى فيه الحل الصحيح الواضح المريح لكل مشكلات البَشرية ، مع أن الإسلام جعل الدعوة فريضة لازمة ، وأوجبها على المسلمين شعوباً وجماعات قبل أن تُخلق هذه النظم ، وقبل أن يُعرف فيها نظام الدعايات :

﴿ وَلْتَكُن مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ، وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١) .

ولكن أنَّى لحكَّامنا هذا ، وهم جميعاً قد تربوا فى أحضان الأجانب ، ودانوا بفكرتهم ، على آثارهم يهرعون ، وفى مرضاتهم يتنافسون ؟ ولعلنا لا نكون مبالغين إذا قلنا إن الفكرة الاستقلالية فى تصريف الشؤون والأعمال لم تخطر ببالهم ، فضلاً عن أن تكون منهاج عملهم .

لقد تقدَّمنا بهذه الأمنية إلى كثير من الحاكمين فى مصر ، وكان طبيعياً ألا يكون لهذه الأمنية أثر عملى . فإن قوماً فقدوا الإسلام فى أنفسهم وبيوتهم وشؤونهم الخاصة والعامة لأعجز من أن يفيضوه على غيرهم ، ويتقدموا بدعوة سواهم إليه ، وفاقد الشئ لا يعطيه .

ليست هذه مهمتهم أيها الإخوان ، فقد أثبتت التجارب عجزهم المطلق عن أدائها ، ولكنها مهمة هذا النشء الجديد ، فأحسنوا دعوته ، وجَدُّوا فى تكوينه ، وعلِّموه استقلال النفس والقلب ، واستقلال الفكر والعقل ، واستقلال الجهاد والعمل ، واملأوا روحه الوثابة بجلال الإسلام وروعة القرآن ، وجندوه تحت لواء

---

(١) آل عمران : ١٠٤

محمد ورايته ، وسترون منه فى القريب الحاكم المسلم الذى يجاهد نفسه ويسعد غيره [1] .

* * *

● الإسلام والسياسة :

جاهد الأستاذ حسن البنا ، جهاداً كبيراً ، ليعلّم المسلمين فكرة « شمول الإسلام » ، وبعبارة أخرى : ليُعيد إليهم ما كان مقرراً وثابتاً طوال ثلاثة عشر قرناً ، أى قبل دخول الاستعمار ، والغزو الفكرى إلى ديارهم ، وهو : أن الإسلام يشمل الحياة كلها بتشريعه وتوجيهه : رأسياً منذ يولد الإنسان حتى يتوفاه اللّه . بل من قبل أن يولد ، وبعد أن يموت ، حيث هناك أحكام شرعية تتعلق بالجنين ، وأحكام تتعلق بالإنسان بعد موته .

وأفقياً ، حيث يوجه الإسلام المسلم فى حياته الفردية والأسرية والاجتماعية والسياسية ، من أدب الاستنجاء إلى إمامة الحكم ، وعلاقات السلم والحرب .

وكانت نتيجة هذا الجهاد واضحة ، هى وجود قاعدة ضخمة تؤمن بهذا الشمول وتنادى بالإسلام عقيدة وشريعة ، وديناً ودولة ، فى كل أقطار الإسلام ، وتراجُع كثيرين من ضحايا الغزو الفكرى عما آمنوا به فى ظل وطأة الاستعمار الثقافى ، وبروز الصحوة الإسلامية على الساحة الفكرية والسياسية بصورة قلبت موازين القوى ، مما جعل الجهات الأجنبية الراصدة من الغرب والشرق ، تعقد الكثير من الحلقات والندوات والمؤتمرات لدراسة هذه الظاهرة الإسلامية الخطيرة وتنفق فى ذلك الأموال والجهود ، حتى بلغ عدد هذه المنتديات - فيما ذكر الأستاذ فهمى هويدى - مائة وعشرين .

وهذا ما جعل عملاء الغرب ، وعبيد أفكاره ، يحاولون إيقاف الفجر أن يطلع أو الشمس أن تبزغ ، وأن يعيدوا عجلة التاريخ إلى الوراء ، إلى عهد الاستعمار ليتصايحوا من جديد : لا سياسة فى الدين ، ولا دين فى السياسة !

---

(١) ص ١٩٦ ، ١٩٧ من مجموع رسائل الإمام الشهيد .

يريدون أن يعيدوها جذعة ، وقد فرغنا منها منذ نصف قرن ، حتى سمى بعض هؤلاء العبيد المساكين الإسلام الذى لم يعرف المسلمون غيره طوال عصوره - قبل عصر الاستعمار - الإسلام كما عرفه الفقهاء والأصوليون والمفسرون والمحدثون والمتكلمون من كل المذاهب ، والذى شرحوه وفصلوه من كتاب الطهارة إلى كتاب الجهاد .. إسلام العقيدة والشريعة ، إسلام القرآن والسنة ، سماه « الإسلام السياسى » [1] !! يريد أن يُكرِّه الناس فى هذا الإسلام بهذا العنوان ، نظرا لكراهية الناس للسياسة فى أوطاننا ، وما جرت عليهم من كوارث ، وما ذاقوا على يديها من ويلات !

ولكن ما حيلتنا إذا كان الإسلام - كما شرعه الله - لا بد أن يكون سياسياً ؟ ما حيلتنا إذا كان الإسلام الذى جاء به محمد ﷺ لا يقبل أن تقسم الحياة والإنسان بين الله تعالى وقيصر ؟ بل يصر على أن يكون قيصر وكسرى وفرعون وكل ملوك الأرض عِبَاداً لله وحده !

يريدنا الكاتب المسكين أن نتخلى عن كتاب ربنا ، وسنة نبينا ، وإجماع أمتنا ، وهدى تراثنا ، لنتبنى إسلاماً حديثاً ، يرضى عنا السادة الكبار ، فيما وراء البحار !

إنه يريد « الإسلام الروحى » أو « الإسلام الكهنوتى » الذى يكتفى بتلاوة القرآن على الأموات ، لا على الأحياء ، ويتبرك بتزيين الجدران بآياته ، أو افتتاح الحفلات بقراءة ما تيسر منه ، ثم يدع قيصر يحكم بما يشاء ، ويفعل ما يريد !

إن الإسلام الذى جاء به القرآن والسنة ، وعرفته الأمة سَلَفاً وخَلَفاً ، هو إسلام متكامل ، لا يقبل التجزئة .

---

(١) انظر الرد على هذا التهجم فى الجزء الثانى من كتابى « فتاوى معاصرة » تحت عنوان «الإسلام السياسى » .

إنه الإسلام الروحى ، والإسلام الأخلاقى ، والإسلام الفكرى ، والإسلام التربوى ، والإسلام الجهادى ، والإسلام الاجتماعى ، والإسلام الاقتصادى ، والإسلام السياسى .

إنه ذلك كله : لأن له فى كل هذه المجالات أهدافاً وغايات ، كما أن له فيها كلها أحكاماً وتوجيهات ...

يقول الإمام البنا فى علاقة الدين بالسياسة :

قلّما تجد إنساناً يتحدث إليك عن السياسة والإسلام إلا وجدته يفصل بينهما فصلاً ، ويضع كل واحد من المعنيين فى جانب ، فهما عند الناس لا يلتقيان ولا يجتمعان ، ومن هنا سميت هذه جمعية إسلامية لا سياسية ، وذلك اجتماع دينى لا سياسة فيه ، ورأيتُ فى صدر قوانين الجمعيات الإسلامية ومناهجها « لا تتعرض الجمعية للشؤون السياسية » .

وقبل أن أعرض إلى هذه النظرة بتزكية أو تخطئة ، أحب أن ألفت النظر إلى أمرين مهمين :

أولهما : أن الفارق بعيد بين الحزبية والسياسة ، وقد يجتمعان وقد يفترقان ، فقد يكون الرجل سياسياً بكل ما فى الكلمة من معان وهو لا يتصل بحزب ولا يمتُّ إليه ، وقد يكون حزبياً ولا يدرى من أمر السياسة شيئاً ، وقد يجمع بينهما فيكون سياسياً حزبياً أو حزبياً سياسياً على حد سواء ، وأنا حين أتكلم عن السياسة فى هذه الكلمة فإنما أريد السياسة المطلقة ، وهى النظر فى شؤون الأمة الداخلية والخارجية غير مقيَّدة بالحزبية بحال .. هذا أمر .

والثانى : أن غير المسلمين حينما جهلوا هذا الإسلام ، أو حينما أعياهم أمره وثباته فى نفوس أتباعه ، ورسوخه فى قلوب المؤمنين به ، واستعداد كل مسلم لتفديته بالنفس والمال ، لم يحاولوا أن يجرحوا فى نفوس المسلمين اسم الإسلام

ولا مظاهره وشكلياته ، ولكنهم حاولوا أن يحصروا معناه فى دائرة ضيقة تذهب بكل ما فيه من نواح قوية عملية ، وإن تُرِكت للمسلمين بعد ذلك قشور من الألقاب والأشكال والمظهريات لا تُسمن ولا تُغنى من جوع ... فأفهموا المسلمين أن الإسلام شئ والاجتماع شئ آخر ، وأن الإسلام شئ والقانون شئ غيره ، وأن الإسلام شئ ومسائل الاقتصاد لا تتصل به ، وأن الإسلام شئ والثقافة العامة سواه ، وأن الإسلام شئ يجب أن يكون بعيداً عن السياسة .

فحدِّثونى بربكم أيها الإخوان ، إذا كان الإسلام شيئاً غير السياسة وغير الاجتماع ، وغير الاقتصاد ، وغير الثقافة ، فما هو إذن ؟ ... أهو هذه الركعات الخالية من القلب الحاضر ، أم هذه الألفاظ التى هى كما تقول رابعة العدوية : استغفار يحتاج إلى استغفار ، ألهذا أيها الإخوان نزل القرآن نظاماً كاملاً محكمًا مفصلاً ﴿ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَئٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (١) .

هذا المعنى المتضائل لفكرة الإسلام ، وهذه الحدود الضيِّقة التى حُدد بها معنى الإسلام ، هى التى حاول خصوم الإسلام أن يحصروا فيها المسلمين ، وأن يضحكوا عليهم بأن يقولوا لهم : لقد تركنا لكم حرية الدين ، وأن الدستور ينص على أن دين الدولة الرسمى هو الإسلام .

أنا أعلن أيها الإخوان من فوق هذا المنبر بكل صراحة ووضوح وقوة ، أن الإسلام شئ غير هذا المعنى الذى أراد خصومه والأعداء من أبنائه ، أن يحصروه فيه ويقيدوه به ، وأن الإسلام عقيدة وعبادة ، ووطن وجنسية ، وسماحة وقوة ، وخُلُقٌ ومادة ، وثقافة وقانون . وأن المسلم مطالَب بحكم إسلامه أن يعنى بكل شؤون أمته ، ومَن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم .

---

(١) النحل : ٨٩

وأعتقد أن أسلافنا رضوان الله عليهم ما فهموا للإسلام معنى غير هذا ، فبه كانوا يحكمون ، وله كانوا يجاهدون ، وعلى قواعده كانوا يتعاملون ، وفى حدوده كانوا يسيرون فى كل شأن من شؤون الحياة الدنيا العملية قبل شؤون الآخرة الروحية ، ورحم الله الخليفة الأول إذ يقول : « لو ضاع منى عقال بعير لوجدته فى كتاب الله » اهـ [1] .

ويقول العالِم المؤرخ الرصين الدكتور ضياء الدين الريس : فى كتابه « النظريات السياسية الإسلامية » [2] :

« لم يعد هناك شك فى أن النظام الذى أقامه رسول الله ﷺ والمؤمنون معه بالمدينة - إذا نظر إليه من وجهة مظهره العملى ، وقيس بمقاييس السياسة فى العصر الحديث - يمكن أن يوصف بأنه « سياسى » ، بكل ما تؤديه هاته الكلمة من معنى . وهذا لا يمنع أنه يوصف فى نفس الوقت بأنه « دينى » إذا كانت وجهة الاعتبار هى النظر إلى أهدافه ودوافعه ، والأساس المعنوى الذى يرتكز عليه .

فالنظام يمكن أن يوصف إذن فى وقت واحد بالوصفين ؛ وذلك لأن حقيقة الإسلام شاملة : تجمع بين شئون الناحيتين المادية والروحية ، وتتناول أعمال الإنسان فى حياتيه الدنيوية والأخروية . بل إن فلسفته عامة تمزج بين الأمرين ، ولا تعترف بالتمييز بينهما إلا من حيث اختلاف وجهة النظر . أما فى ذاتيتيهما فيؤلفان كُلاً أو وحدة منسقة ؛ وهما متلازمان لا يمكن أن يُتصور انفصال أحدهما عن الآخر . وهذه الحقيقة عن طبيعة الإسلام قد أصبحت من الوضوح بحيث لا تحتاج إلى كبير عناء لإقامة البرهان . وهى مؤيَّدة من حقائق التاريخ ؛ وكانت عقيدة المسلمين فى كل العصور السالفة . وقد بدأ يدركها جمهور من

---

(١) من رسالة مؤتمر طلبة الإخوان المسلمين .

(٢) ص ٢٧ - ٢٩

المستشرقين مع عدم قُربهم من بيئة الإسلام . ومع ذلك فهناك نفر من أبناء الإسلام ، ممن ينعتون أنفسهم بأنهم « مجدِّدون » يجاهرون بإنكارهم لهذه الحقيقة ! وهم يدَّعون أن الإسلام ليس إلا مجرد « دعوة دينية » [1] : يريدون بذلك أنه ليس إلا مجرد اعتقاد أو صلة روحية بين الفرد وربه ، فلا تعلق له إذن بهذه الشئون التى نصفها بأنها مادية فى هذه الحياة الدنيا . ومن بين هذه الشئون : مسائل الحرب والمال ، وفى طليعتها أمور السياسة . ومن أقوالهم : « إن الدين شئ والسياسة شئ آخر » .

وليس من المجدى ، من أجل الرد على هؤلاء ، أن نروى لهم أقوال علماء الإسلام ، فقد لا يستشعرون أنهم مقتنعون بما يقولون . ولا أن نبدأ بذكر حقائق التاريخ ، فقد يعمدون إلى المكابرة فيها ! ولكن يكفى أن نثبت جملة مما قال علماء الاستشراق فى هذا الصدد ، وقد بيَّنوا آراءهم فى عبارات صريحة قاطعة ، لأن هؤلاء المجدِّدين لا يستطيعون أن يزعموا أنهم أوثق منهم صلة بالعصر الحاضر . ولا أكثر قُدرة على استعمال أساليب البحث الحديثة . واستخدام الطرق العلمية . فهذه إذن طائفة من أقوالهم :

١- يقول الدكتور « فتزجرالد » (Dr. V. Fitzgerald) [2] :

« ليس الإسلام « ديناً » فحسب (A Religion) ، ولكنه « نظام سياسى أيضاً (A Political system) . وعلى الرغم من أنه قد ظهر فى العهد

---

(١) فى مقدمة المجاهرين بهذه الآراء والمدافعين عنها الأستاذ « على عبد الرازق » القاضى الشرعى السابق بالمنصورة ، ثم وزير الأوقاف فيما بعد - فى كتابه الذى نشره عام ١٩٢٥ بعنوان : « الإسلام وأصول الحكم » . وفوق هذه الردود التى نعرضها الآن ، سنعود إلى مناقشة آرائه والرد عليها بالتفصيل ، فى خلال الفصول القادمة . (انظر - بصفة خاصة - الفصل الرابع ، من كتابنا هذا . تحت عنوان : الرد على دعاوى بعض المعاصرين) من تعليق . د . الريس .

(٢) Muhammedan Law - ch, I., P. 1

الأخير بعض أفراد من المسلمين ، ممن يصفون أنفسهم بأنهم « عصريون » يحاولون أن يفصلوا بين الناحيتين - فإن صرح التفكير الإسلامى كله قد بُنِىَ على أساس أن الجانبين متلازمان ، لا يمكن أن يُفصل أحدهما عن الآخر » . اهـ .

٢- ويقول الأستاذ « نللينو » (C. A. Nalliino) [١] :

« لقد أسس « محمد » فى وقت واحد : ديناً (A Religion) ودولة (A State) ، وكانت حدودهما متطابقة طوال حياته » .

٣ - ويقول الدكتور « شاخت » (Dr. Schacht) [٢] :

« على أن الإسلام يعنى أكثر من دين : إنه يمثل أيضاً نظريات قانونية وسياسية ؛ وجملة القول إنه نظام كامل من الثقافة يشمل الدين والدولة معاً »

٤ - ويقول الأستاذ « ستروثمان » (R. Strothmann) [٣] :

« الإسلام ظاهرة دينية . سياسية : إذ أن مؤسسه كان نبياً . وكان سياسياً حكيماً ، أو « رجل دولة » .

٥ - ويقول الأستاذ « ماكدونالد » (D. B. Macdonald) [٤] :

« هنا - أى فى المدينة - تكوّنت الدولة الإسلامية الأولى ، ووضعت المبادئ الأساسية للقانون الإسلامى » .

---

(١) Cited by Sir T. Arnold in his Book : The Caliphate . P. 198 .

(٢) Encyclopaedia of Social Sciences . Vol. VIII P. 333 .

(٣) The Encyclopaedia of Islam , IV. P. 350 .

(٤) tion- Development of Muslim Theology . jurisprudence , and Canstitu al Theory . (New York 1903) p. 67 .

٦ - ويقول السير « توماس أرنولد » (Sir. T. Arnold) [١] :

« كان النبى . فى نفس الوقت ، رئيساً للدين ورئيساً للدولة » .

٧ - ويقول الأستاذ « جب » [٢] :

« عندئذ صار واضحاً أن الإسلام لم يكن مجرد عقائد دينية فردية ، وإنما استوجب إقامة مجتمع مستقل ، له أسلوبه المعيَّن فى الحكم ، وله قوانينه وأنظمته الخاصة به » . أ هـ .

فمن لم يكن يقنعه إلا أقوال الغربيين فهاهى تخرس كل مكابر .

* * *

● الوطن والوطنية :

وهناك جزء آخر من الجانب السياسى أشار إليه الأستاذ البنا فى الأصل الأول ، وفصله فى رسائله الأخرى ، وهو ما يتعلق بالوطن والوطنية . فقد ذكر « الوطن » بجانب « الدولة » حين قال : الإسلام دولة ووطن .

والواقع أنه لا دولة بلا وطن . فمن مقوِّمات الدولة أن يكون لها أرض مستقلة محددة الأبعاد تسود فيها وتحكم . وهذه هى الوطن .

وبعض دعاة الوطنية اتهم دعاة الإسلام بأنهم لا يتحمسون للوطن ، والوطنية : وهذا ليس بصحيح . فإن أوطانهم جزء من أرض الإسلام أو « دار الإسلام » التى يدافعون عنها بالأنفس والأموال ، ويفدونها بالمهج والأرواح .

إنما الذى ينكرونه هو « العصبية الإقليمية » الضيقة . والمبالغة فى الوطنية بحيث تصبح بديلاً عن الدين . ويغدو الوطن « وثناً » يُعبد مع الله أو من دون الله ، وتمسى العاطفة الوطنية بديلاً عن العاطفة الدينية ، وبعبارة أدق : العاطفة

---

(١) The Caliphate . Oxford 1924, P. 30 .

(٢) Muhammedanism . 1949, P. 3 .

الإسلامية ، ويصبح الولاء للوطن لا للّه ، والإقسام بالوطن لا باللّه ، والبداية باسم الوطن لا باسم اللّه ، والعمل لوجه الوطن لا لوجه اللّه .

هذا هو الذى يُنكر من الوطنية وليس حب الوطن ولا الذود عنه ، ولا العمل على تحريره وتقدمه وازدهاره . وفى هذا يقول الأستاذ البنا فى رسالة « إلى الشباب » :

« يخطئ من يظن أن الإخوان المسلمين يتبرمون بالوطن والوطنية ، فالمسلمون أشد الناس إخلاصاً لأوطانهم وتفانياً فى خدمة هذه الأوطان ، واحتراماً لكل مَن يعمل لها مخلصاً ، وها قد علمت إلى أى حد يذهبون فى وطنيتهم وإلى أى عزة يبغون بأمتهم . ولكن الفارق بين المسلمين وبين غيرهم من دعاة الوطنية المجردة أن أساس وطنية المسلمين العقيدة الإسلامية . فهم يعملون لوطن مثل مصر ويجاهدون فى سبيله ويفنون فى هذا الجهاد لأن مصر فى أرض الإسلام وزعيمة أممه ؛ كما أنهم لا يقفون بهذا الشعور عند حدودها ، بل يشركون معها فيه كل أرض إسلامية وكل وطن إسلامى ، على حين يقف كل وطنى مجرد عند حدود أمته ، ولا يشعر بفريضة العمل للوطن إلا عن طريق التقليد أو الظهور أو المباهاة أو المنافع ، لا عن طريق الفريضة المنزّلة من اللّه على عباده . وحسبك من وطنية الإخوان المسلمين أنهم يعتقدون عقيدة جازمة لازمة أن التفريط فى أى شبر أرض يقطنه مسلم ، جريمة لا تُغتفر ، حتى يعيدوه أو يهلكوا دون إعادته ، ولا نجاة لهم من اللّه إلا بهذا » . ا هـ [1] .

وفى رسالة أخرى - دعوتنا - يفصّل الإمام البنا القول فى الوطنية تفصيلاً ، فقد كان الرجل حريصاً على تحديد المفاهيم الغامضة ، أو المحتملة لاختلاف الأفهام ، وعلى تفصيل المعانى والمصطلحات المجملة ، وضبط الكلمات الهلامية التى يفسرها كل فريق بما يمليه عليه هواه ، أو تبعيته لفكرة معيّنة .

---

(١) من رسالة « إلى الشباب » ص ١٠٤ ، ١٠٥ من مجموع رسائل الإمام الشهيد ط . دار الدعوة بالإسكندرية .

بيَّن فى هذه الرسالة الموقف من الدعوات المختلفة التى طغت فى هذا العصر ففرقت القلوب وبلبلت الأفكار . ومنها : الوطنية .

قال رحمه الله :

« افتتن الناس بدعوة الوطنية تارة والقومية تارة أخرى ، وبخاصة فى الشرق ، حيث تشعر الشعوب الشرقية بإساءة الغرب إليها ، إساءة نالت من عزتها وكرامتها واستقلالها ، وأخذت من مالها ومن دمها ، وحيث تتألم هذه الشعوب من هذا النير الغربى الذى فُرِضَ عليها فرضاً ، فهى تحاول الخلاص منه بكل ما فى وسعها من قوة ومنعة وجهاد وجلاد ، فانطلقت ألسن الزعماء ، وسالت أنهار الصحف ، وكتب الكاتبون ، وخطب الخطباء وهتف الهاتفون باسم الوطنية وجلال القومية .

حسن ذلك وجميل ، ولكن غير الحسن وغير الجميل أنك حين تحاول إفهام الشعوب الشرقية - وهى مسلمة - أن ذلك فى الإسلام بأوفى وأزكى وأسمى وأنبل مما هو فى أفواه الغربيين ، وكتابات الأوروبيين ، أبوا ذلك عليك ، ولجُّوا فى تقليدهم يعمهون ، وزعموا لك أن الإسلام فى ناحية ، وهذه الفكرة فى ناحية أخرى ، وظن بعضهم أن ذلك مما يُفرِّق وحدة الأمة ، ويُضعف رابطة الشباب .

هذا الوهم الخاطئ كان خطراً على الشعوب الشرقية من كل الوجهات ، وبهذا الوهم أحببتُ أن أعرض هنا إلى موقف الإخوان المسلمين ودعوتهم من فكرة الوطنية ، ذلك الموقف الذى ارتضوه لأنفسهم ، والذى يريدون ويحاولون أن يرضاه الناس معهم .

إن كان دعاة الوطنية يريدون بها حب هذه الأرض وألفتها والحنين إليها والانعطاف نحوها ، فذلك أمر مركوز فى فِطَرِ النفوس من جهة ، مأمور به فى الإسلام من جهة أخرى ، وإن بلالاً الذى ضحى بكل شئ فى سبيل عقيدته

ودينه ، هو بلال الذى كان يهتف فى دار الهجرة بالحنين إلى مكة ، فى أبيات تسيل رقة وتقطر حلاوة [1] :

ألا ليت شعرى هل أبيتَنَّ ليلةً ... بوادٍ وحولى إذْخِرٌ وجليلُ ؟!

وهل أرِدَنْ يوماً مياه مجنةٍ ... وهل يبدُوَنْ لى شامة وطفيل ؟!

ولقد سمع رسول الله ﷺ وصف مكة من « أصيل » فجرى دمعه حنيناً إليها وقال : « يا أصيل ، دع القلوب تقر » .

وإن كانوا يريدون أنَّ من الواجب العمل بكل جهد فى تحرير البلد من الغاصبين وتوفير استقلاله له ، وغرس مبادئ العزة والحرية فى نفوس أبنائه ، فنحن معهم فى ذلك أيضاً ، وقد شدَّد الإسلام فى ذلك أبلغ التشديد فقال تبارك وتعالى : ﴿ وَلِلَّهِ العِزَّةُ وَلِرَسُولِه وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ المُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [2] ، ويقول : ﴿ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى المُؤْمِنِينَ سَبِيلاً ﴾ [3] .

وإن كانوا يريدون بالوطنية تقوية الرابطة بين أفراد القُطر الواحد ، وإرشادهم إلى طريق استخدام هذه التقوية فى مصالحهم ، فذلك نوافقهم فيه أيضاً ، ويراه الإسلام فريضة لازمة فيقول نبيه ﷺ : « وكونوا عباد الله إخواناً » [4] ، ويقول القرآن الكريم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ البَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ، قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ ، إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [5] .

وإن كانوا يريدون بالوطنية فتح البلاد ، وسيادة الأرض ، فقد فرض ذلك الإسلام ووجَّه الفاتحين إلى أفضل استعمار وأبرك فتح ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾ [6] .

---

(١) الحديث رواه البخاري ومسلم عن عائشة ، والشعر عند البخاري فقط .

(٢) المنافقون : ٨ (٣) النساء : ١٤١

(٤) رواه أحمد ومسلم عن أبى هريرة كما فى صحيح الجامع الصغير .

(٥) آل عمران : ١١٨ (٦) البقرة : ١٩٣

وإن كانوا يريدون بالوطنية تقسيم الأمة إلى طوائف تتناحر وتتضاغن وتتراشق بالسباب وتترامى بالتهم ويكيد بعضها لبعض ، وتتشيع لمناهج وضعية أملتها الأهواء وشكّلتها الغايات والأغراض ، وفسّرتها الأفهام وفق المصالح الشخصية ، والعدو يستغل كل ذلك لمصلحته ويزيد وقود هذه النار اشتعالاً يُفرِّقهم فى الحق ويجمعهم على الباطل ، ويُحرِّم عليهم اتصال بعضهم ببعض وتعاون بعضهم مع بعض ، ويحل لهم هذه الصلة به والالتفاف حوله ، فلا يقصدون إلا داره ولا يجتمعون إلا زواره ، فتلك وطنية زائفة لا خير فيها لدعاتها ولا للناس . فها أنتَ ذا قد رأيتَ أننا مع دعاة الوطنية ، بل مع غلاتهم فى كل معانيها الصالحة التى تعود بالخير على البلاد والعباد ، وقد رأيتَ مع هذا أن تلك الدعوى الوطنية الطويلة العريضة لم تخرج عن أنها جزء من تعاليم الإسلام .

● حدود وطنيتنا :

« أما وجه الخلاف بيننا وبينهم فهو أننا نعتبر حدود الوطنية بالعقيدة وهم يعتبرونها بالتخوم الأرضية والحدود الجغرافية ، فكل بقعة فيها مسلم يقول : « لا إله إلاّ اللّه محمد رسول اللّه » وطن عندنا له حُرمته وقداسته وحبه والإخلاص له ، والجهاد فى سبيل خيره ، وكل المسلمين فى هذه الأقطار الجغرافية أهلنا وإخواننا ، نهتم لهم ونشعر بشعورهم ونحس بإحساسهم . ودعاة الوطنية فقط ليسوا كذلك ، فلا يعنيهم إلا أمر تلك البقعة المحدودة الضيِّقة من رقعة الأرض ، ويظهر ذلك الفارق العملى فيما إذا أرادت أُمة من الأمم أن تقوِّى نفسها على حساب غيرها فنحن لا نرضى ذلك على حساب أى قُطر إسلامى ، إنما نطلب القوة لنا جميعاً ، ودعاة الوطنية المجرَّدة لا يرون فى ذلك بأساً ، ومن هنا تتفكك الروابط وتضعف القوى ويضرب العدو بعضهم ببعض .

● غاية وطنيتنا :

« هذه هى واحدة . والثانية أن الوطنيين فقط ، جلُّ ما يقصدون إليه ، تخليص بلادهم ، فإذا ما عملوا لتقويتها بعد ذلك ، اهتموا بالنواحى المادية كما تفعل أوروبا الآن ، أما نحن فنعتقد أن المسلم فى عنقه أمانة عليه أن يبذل نفسه ودمه وماله فى سبيل أدائها تلك هى هداية البَشر بنور الإسلام ، ورفع عَلمه خفّاقاً على كل ربوع الأرض ، لا يبغى بذلك مالاً ولا جاهاً ولا سلطاناً على أحد ولا استعباداً لشعب ، وإنما يبغى وجه اللّه وحده وإسعاد العالم بدينه وإعلاء كلمته ، وذلك ما حدا بالسَلَف الصالحين رضوان اللّه عليهم إلى هذه الفتوح القدسية التى أدهشت الدنيا وأربت على كل ما عرف التاريخ من سرعة وعدل ونبل وفضل .

● الوحدة واختلاف الدين :

وأحب أن أنبهك إلى سقوط ذلك الزعم القائل إن الجرى على هذا المبدأ يمزق وحدة الأمة التى تتألف من عناصر دينية مختلفة ، فإن الإسلام وهو دين الوحدة والمساواة كفل هذه الروابط بين الجميع ما داموا متعاونين على الخير : ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (١) . فمن أين يأتى التفريق إذن(٢) ؟

أفرأيتَ بعد هذا كيف أننا متفقون مع أشد الناس غلواً فى الوطنية فى حب الخير للبلاد ، والجهاد فى سبيل تخليصها وخيرها وارتقائها ، ونعمل ونؤيد كل مَن يسعى فى ذلك بإخلاص ، بل أحب أن نتعلم أن مهمتهم إن كانت تنتهى بتحرير الوطن واسترداد مجده ، فإن ذلك عند الإخوان المسلمين بعض الطريق فقط

(١) الممتحنة : ٨

(٢) انظر كتابنا « غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى » وفصل « الحل الإسلامى والأقليات الدينية » من كتابنا : « بينات الحل الإسلامى وشبهات العلمانيين والمتغربين » .

أو مرحلة منه واحدة ، ويبقى بعد ذلك أن يعملوا لتُرفع راية الوطن الإسلامى على كل بقاع الأرض ، ويخفق لواء « المصحف » فى كل مكان » [1] .

* * *

● الوطنية المصرية عند الإمام :

ويعود الأستاذ إلى فكرة « الوطنية » أو « المصرية » بمعنى الانتماء إلى مصر وحبها ، والعمل على تحريرها والنهوض بها . فيقول :

« فالمصرية أو القومية [2] لها فى دعوتنا مكانها ومنزلتها وحقها فى الكفاح والنضال .

إننا مصريون بهذه البقعة الكريمة من الأرض التى نبتنا فيها ونشأنا عليها . ومصر بلد مؤمن تلقّى الإسلام تلقياً كريماً ، وذاد عنه ، ورد عنه العدوان فى كثير من أدوار التاريخ وأخلص فى اعتناقه ، وطوى عليه أعطف المشاعر وأنبل العواطف ، وهو لا يصلح إلا بالإسلام ، ولا يداوى إلا بعقاقيره ، ولا يطب له إلا بعلاجه . وقد انتهت إليه بحكم الظروف الكثيرة حضانة الفكرة الإسلامية ، والقيام عليها ، فكيف لا نعمل لمصر ولخير مصر ؟ وكيف لا ندفع عن مصر بكل ما نستطيع ؟ وكيف يقال : إنّ الإيمان بالمصرية لا يتفق مع ما يجب أن يدعو إليه رجل ينادى بالإسلام ويهتف بالإسلام ! إننا نعتز بأننا مخلصون لهذا الوطن الحبيب ، عاملون له ، مجاهدون فى سبيل خيره ، وسنظل كذلك ما حيينا معتقدين أن هذه هى الحلقة الأولى فى سلسلة النهضة المنشودة ، وأنها جزء من الوطن العربى العام ، وأننا حين نعمل لمصر نعمل للعروبة والشرق والإسلام .

---

(١) من رسالة « دعوتنا » ص ٢٤ - ٢٧ من مجموع الرسائل ط . دار الدعوة - الإسكندرية .

(٢) يلاحظ أن الأستاذ جعل المصرية مرادفة للقومية ، فلم تكن هذه الألفاظ قد تحدد معناها وتمايزها تماماً وإن كان فى رسالة « دعوتنا » قد فرق بينهما بوضوح . وسنذكر ذلك بعد .

وليس يضيرنا فى هذا كله أن نعنى بتاريخ مصر القديم ، وبما سبق إليه قدماء المصريين الناسَ من المعارف والعلوم . فنحن نرحب بمصر القديمة كتاريخ فيه مجد وفيه علم ومعرفة . ونحارب هذه النظرية بكل قوانا كمنهاج عملى ، يراد صبغ مصر به ودعوتها إليه ، بعد أن هداها اللّه بتعاليم الإسلام ، وشرح له صدرها ، وأنار به بصيرتها ، وزادها به شرفاً ومجداً فوق مجدها ، وخلّصها بذلك مما لاحق هذا التاريخ من أوضار الوثنية ، وأدران الشرك ، وعادات الجاهلية » [1] .

* * *

● المؤتمرات الوطنية العامة :

ولم يكتف حسن البنا بما ذكره فى رسائله عن الوطن والوطنية ، فكثيراً ما شرح ذلك فى لقاءاته الخاصة ، ومؤتمراته العامة .

وأشهد لقد حضرتُ أحد المؤتمرات العامة التى كان يعقدها الإخوان لشرح المطالب الوطنية فى عواصم الأقاليم المصرية . ويتحدث فيها الإمام الشهيد وصحبه . وذلك بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية فى سنة ١٩٤٥ ، وهبوب الشعوب للمطالبة بحريتها واستقلالها .

كان ذلك المؤتمر فى مدينة طنطا التى أدرس فيها . وقد تحدّث الأستاذ عن الوطن ، فقسّمه إلى ثلاثة أقسام . أو إلى ثلاث مراتب :

الوطن الصغير ، والوطن الكبير ، والوطن الأكبر .

فأما الوطن الصغير فهو « وادى النيل » شماله وجنوبه . شماله : مصر ، وجنوبه : السودان ، وكان الأستاذ البنا يقول : مصر هى السودان الشمالى ، والسودان هو مصر الجنوبية . نحن من السودان ، والسودان منا . وقد تحددت المطالب هنا فى أمرين : جلاء الإنجليز ، ووحدة الوادى .

---

(١) من رسالة « إلى الشباب » ص ١٢٩ من مجموع الرسائل .

وأما الوطن الكبير ، فهو « الوطن العربى » ، ولأول مرة أسمع تحديده من الشيخ رحمه الله : من المحيط الأطلسى إلى الخليج (الفارسى) - اتباعاً للمصطلح السائد فى ذلك الوقت - ولم تكن شاعت كلمة « الخليج العربى » هو فارسى من جهة ، وعربى من جهه أخرى . ولهذا اقترح بعضهم تسميته «الخليج الإسلامى » .

وهنا تحدَّث عن قضية فلسطين ، وأطماع الصهيونية فيها ، ولفت الأنظار إلى خطورتها . وكان دائم التنبيه على أهمية هذه القضية وما تحمله اليهودية من خطر على العرب والمسلمين فى الحاضر والمستقبل .

وأما الوطن الأكبر ، فهو : « الوطن الإسلامى » من المحيط إلى المحيط ، أى من المحيط الأطلسى إلى المحيط الهادى ، من الدار البيضاء إلى جاكرتا .

بل كان البنا - رضى الله عنه - يعتبر « الأندلس » جزءاً من الوطن الإسلامى ، اغتُصِبَ منه ، بعد ثمانية قرون من الحضارة .

ومما لا أنساه فى هذا المؤتمر : أن أحد إخواننا الأقباط تكلم فى هذا المؤتمر عن قضية « قناة السويس » وحق مصر فيها ، وكان متخصصاً فى هذا المجال . وكان الإمام يصطحبه معه لشهود هذه المؤتمرات فى الأقاليم ، رمزاً للوحدة الوطنية ، ودليلاً على التسامح الإسلامى .

ومما أذكره عن هذا المؤتمر ما قاله الأستاذ عن الوطن الخاص أو الصغير (وادى النيل) وعن « الاحتلال الإنجليزى » وكيف نقاومه ؟ وما وسيلتنا فى ذلك . وذكر هنا عدة وسائل :

١ - المفاوضة . دون أى تفريط فى أى حق من حقوق الوطن شماله وجنوبه

٢ - المقاطعة إذا لم تجد المفاوضة ، لما هو معروف من تعنت الإنجليز وصلفهم . وهنا وضَّح الأستاذ أننا نحن أبناء مصر السودان قادرون على أن نعيش على

الكفاف . ونستغنى عن بضائع الإنجليز . وذكر هنا المثل العامى الذى يقول : «اللّى عنده العيش ويبلّه عنده الفرح كله » . وقال : سنخرج فتاوى ابن حزم من أنّ بدن العدو الكافر وعَرقه ولعابه نجس ... إلخ .

٣ - الجهاد . قال : فإن لم تجد المقاطعة ، فليس أمامنا إلا الجهاد . وسيقوم هذا الشعب عن بَكرة أبيه للدفاع عن حريته وكرامته ، منتظراً إحدى الحسنيين : النصر أو الجنة .

وهنا قال : فإنّ من الأدعية التى حفظتُها فى الصغر وكنتُ أرددها : اللّهم ارزقنى الحياة الحسنة ، والموتة الحسنة . وما معنى الموتة الحسنة ؟ هل هى أن يموت الإنسان على فراشه كما يموت العَيْر[1] ؟ إنى لا أجد لها معنى إلا أن يفصل هذا عن هذا فى سبيل اللّه ! - وأشار إلى رأسه وجسده رضى اللّه عنه - . وهنا ضجّ المؤتمر كله بالتهليل والتكبير .

هذا التوجه ، وهذه التربية ، قد آتت أُكلها فى عقول الإخوان ونفوسهم ، فكانوا هم السباقين إلى الدفاع عن الوطن ، معتبرين ذلك جزءاً من الإسلام ، وتعبيراً عن الإيمان . يستوى فى ذلك الوطن الصغير والوطن الكبير .

ففى فلسطين كانت لهم مواقفهم وبطولاتهم وشهداؤهم الذين رووا ثرى الأرض المقدسة بدمائهم ، وسجل بعض ذلك الأخ الفاضل الأستاذ كامل الشريف فى كتابه « الإخوان المسلمون فى حرب فلسطين » . وكان جزاؤهم عن ذلك « حل الجماعة » فى ٨ ديسمبر سنة ١٩٤٨

بل إن ما أصاب الإخوان من محن قاسية ، وضربات وحشية متتابعة ، كان له ارتباط بقضية فلسطين . حل الإخوان سنة ١٩٤٨ كان بناءً على طلب سفراء أمريكا وبريطانيا وفرنسا - بعد اجتماعهم فى معسكر « فايد » - واستجابة النقراشى وحكومته لهم . كما أثبتت ذلك الوثائق المؤكدة .

---

(١) العير : أى الحمار .

ومحنة ١٩٦٥ كان تمهيداً لنكبة ١٩٦٧

وموقف الإخوان فى معارك قناة السويس ، والتل الكبير مشهور غير منكور، وشهداؤهم - وخصوصاً من طلاّب الجامعة - معروفون (عمر شاهين والمنيسى وغانم) .

وقد شاركنا نحن أبناء الأزهر فى هذه المسيرة ، وأقمنا معسكرنا بجامعة الأزهر بالدراسة ، وسافرت كتيبتنا إلى « الشرقية » وودعناها فى احتفال مهيب بقاعة الإمام محمد عبده .

وقد سجل بعض ذلك الأستاذ كامل الشريف أيضاً فى كتابه عن « المقاومة السرية فى قناة السويس » ، والأستاذ حسن دوح فى كتابه عن « كفاح الشباب الجامعى فى قناة السويس » .

أما ما أداه الإخوان من خدمات لوطنهم فى المجالات الأخرى ، فشئ يجل عن الحصر . وكل مدينة أو قرية فى مصر تشهد بآثارهم التربوية والثقافية والاجتماعية . ومن الكتب الموثقة فى الجانب الاجتماعى : كتاب الأستاذ محمد شوقى زكى « الإخوان والمجتمع المصرى » .

وهذا الذى حدث فى مصر ، حدث مثله أو ما يقاربه فى الأقطار العربية الأخرى التى انتشرت فيها دعوة الإخوان المسلمين .

وبهذا ثبت بالقول والعمل ، وبالنظر والتطبيق : أنّ الإخوان المسلمين هم أصدق الناس فى حب أوطانهم ، والاستماتة فى خدمتها ، والذود عن حياضها بالمهج والأرواح ، لأنهم يفعلون ذلك بدافع الإيمان ، وموجب حكم الإسلام .

* * *

• الأمة فى الإسلام :

ويبقى فى الجانب السياسى جزء ثالث أشار إليه صاحب الأصول العشرين - بجانب الدولة والوطن - هو ما يتعلق بالأمة ، فالإسلام دولة ووطن أو حكومة وأمة .

فكما يعنى الإسلام بالسُلطة الحاكمة يعنى كذلك - بل قبل ذلك - بالأمة التى تختار السُلطة ، وتنبثق عنها الدولة .

وُلِدَ الإسلام فى جزيرة العرب ، وهى قائمة على القَبَلية والعصبية لها . فالقبيلة هى أساس الولاء ، ومصدر الاعتزاز والانتماء . فلا مكان لابن القبيلة إلا بها ، بل لا وجود له إلا بها ، فهى النَسب والحَسب ، وهى السُلطة والقوة ، وهى الاقتصاد والسياسة . يرضى برضاها ، ويغضب بغضبها ، أو بغضب شيخها ، ويتعصب لابن القبيلة محقاً كان أو مبطلاً ، شعار كل واحد فيها : «انصر أخاك - أى ابن القبيلة - ظالماً أو مظلوماً » بالمعنى الظاهرى للعبارة . وكل قبيلة تحاول أن تستعلى على القبيلة الأخرى ، وتنقص من أطرافها ، ولهذا كثرت الغارات من بعضهم على بعض ، حتى قال قائلهم :

وأحيـاناً على بكر أخينا إذا ما لم نجـد إلا أخانا !

فلما جاء الإسلام نقلهم نقلة كبيرة فى عالَم الفكر ، وعالَم الشعور ، وعالَم الواقع ، نقلهم من سجن القَبَلية الضيقة ، إلى باحة الأمة الواسعة . وحذَّر أشد التحذير من الدعوة إلى العصبية بكل ألوانها ، وخصوصاً العصبية للقبيلة .

وفى الحديث : « ليس منا مَن دعا إلى عصبية ، أو قاتل على عصبية ، أو مات على عصبية » [1] .

---

(١) رواه أبو داود فى الأدب (١٥٢١) عن جبير بن مطعم . والحديث فيه ضعف ولكن يشهد له حديث مسلم الآتى بعده .

« مَن قاتل تحت راية عُمِّية ، يغضب لعَصَبَة ، أو يدعو إلى عَصبة ، أو ينصر عَصبة ، فقُتِل ، فقتلة جاهلية » [١] .

وسُئل صلى الله عليه وسلم عن « العصيبة » فقال : « أن تعين قومك على الظلم » [٢] ففسَّرها بأثرها فى واقع المجتمع القَبَلى ، فصاحب العصبية مع جماعة وإن جاروا وظلموا ، وضد خصومهم وأن بروا وأقسطوا أو أُوذوا وظُلموا. على خلاف ماجاء به الإسلام من القيام بالقسط ﴿ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ [٣] ، ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا ﴾ [٤] .

وفى لحظة من لحظات الضعف البَشرى ، أطلت النزعة القَبَلية عند بعض الصحابة ، فتنادوا بأسماء قبائلهم : يا بنى فلان . ويا بنى علاَّن . فغضب النبى ﷺ أشد الغضب ، وقال : « أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم »؟! [٥] وقال عن دعوة العصبية كلمته المعبرة : « دعوها فإنها منتنة » [٦] .

لقد أراد الإسلام أن يبنى « أمة » على أساس العقيدة والفكرة ، وليس على أى أساس مادى أو أرضى مما يبنى عليه البَشر أُممهم ، من عنصر أو لون أو لغة أو أرض ، مما ليس للإنسان فيه إرادة واختيار . بل هو قدر مفروض عليه ، فلم يختر الإنسان جنسه ولا لونه ولا لغته ولا أرضه التى وُلِدَ فيها . إنما ورث هذا كله دون أن يكون له رأى فيه .

أما العقيدة .. فالأصل فيها أنها من اختيار الإنسان ، وإيمان المقلِّد مشكوك فى قبوله ، بل مرفوض عند المحققين من علماء المسلمين .

أراد الإسلام للمسلمين أن يكونوا أُمة تنتسب إلى الحق لا إلى زيد أو عمرو

---

(١) رواه مسلم فى الإمارة عن أبى هريرة (١٨٤٨) . وعُمِّية : الأمر لايستبين وجهه .

(٢) رواه أبو داود فى الأدب (٥١١٩) عن واثلة بن الأسقع ، وابن ماجه فى الفتن (٣٩٤٩).

(٣) النساء : ١٣٥ (٤) المائدة : ٨

(٥) ذكره ابن كثير فى تفسيره عن ابن إسحاق (٣٨٩/١) (٦) رواه البخارى .

من البَشر ، فهى لا تقوم على رابطة عرقية ولا لونية ولا إقليمية ولا طبقية . بل هى أمة عقيدة ورسالة قبل كل شئ .

هى أمة الإسلام ، أو أمة المسلمين كما قال تعالى : ﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ (١) وهى أمة الإيمان أو أمة المؤمنين . ولهذا تُنادَى دائماً بـ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ .

* * *

● أوصاف الأمة الأساسية فى القرآن :

أبرز ما يميِّز هذه الأمة عن غيرها من الأمم أوصاف أربعة ذكرها القرآن :

● الربانية :

الأول : الربَّانية – ربانية المصدر ، وربانية الوجهة . فهى أمة أنشأها وحى لله تعالى ، وتعهدتها تعاليمه وأحكامه ، حتى اكتمل لها دينها ، وتمت به نعمة الله عليها كما قال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً ﴾ (٢) .

فالله تعالى هو صانع هذه الأمة . ولهذا نجد القرآن الكريم يقول : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً ﴾ (٣) . فهذا التعبير « جَعَلْنَاكُمْ » يفيد أنَّ الله هو جاعل هذه الأمة ومتخذها وصانعها .

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ (٤) فتعبير « أُخْرِجَتْ » يدل على أن هناك مُخرِجاً أخرج هذه الأمة ، فهى لم تظهر اعتباطاً ، ولم تكن نباتاً برياً ينبت وحده دون أن يزرعه زارع ، بل هو نبات

(١) الحج : ٧٨ (٢) المائدة : ٣
(٣) البقرة : ١٤٣ (٤) آل عمران : ١١٠

مقصود متعهَد بالعناية والرعاية . والذى أخرج هذه الأمة وزرعها وهيأها لرسالتها هو اللّه جَلّ شأنه .

فهى أمة مصدرها ربانى ، ووجهتها ربانية كذلك ، لأنها تعيش للّه ، ولعبادة اللّه ، ولتحقيق منهج اللّه فى أرض اللّه . فهى من اللّه وإلى اللّه [1] ، كما قال تعالى لرسوله : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى للّهِ رَبِّ العَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ ﴾ [2] .

● الوسَطية :

والثانى : الوَسطية .. التى تؤهل الأمة للشهادة على الناس ، وتبوئها مكان الأستاذية للبَشرية . وفيها جاءت الآية الكريمة : ﴿ وكَذَلكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُواْ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ [3].

وهى وَسطية شاملة جامعة : وَسطية فى الاعتقاد والتصور ، ووسطية فى الشعائر والتعبد ، ووَسطية فى الأخلاق والسلوك ، ووَسطية فى النظم والتشريع ، ووَسطية فى الأفكار والمشاعر .

وَسطية بين الروحية والمادية .. بين المثالية والواقعية .. بين الفردية والجَماعية [4] .

إنها الأمة التى تمثل « الصراط المستقيم » بين السُبل المتعرجة والملتوية ، صراط اللّه الذى له ما فى السموات وما فى الأرض . صراط الذين أنعم اللّه عليهم من النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين ، لا صراط المغضوب عليهم ولا الضالين .

● الدعوة :

والوصف الثالث : الدعوة . فهى أمة دعوة ورسالة ، ليست أمة منكفئة على نفسها ، تحتكر الحق والخير والهداية لذاتها ، ولا تعمل على نشرها فى الناس.

---

(١) انظر : خصيصة « الربانية » فى كتابنا « الخصائص العامة فى الإسلام » ظ . مكتبة وهبة ومؤسسة الرسالة .
(٢) الأنعام : ١٦٢ - ١٦٣
(٣) البقرة : ١٤٣
(٤) انظر : خصيصة « الوسطية » من كتابنا المذكور .

بل الدعوة فريضة عليها ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مع الإيمان بالله أساس تفضيلها على كل الأمم . كما قال تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (١) .

فهى لم ترجح سائر الأمم فى ميزان الله لسبب مادى أو عنصرى . كيف وهى تتكون من عناصر شتّى ، من كل مَن يدخل فى دين الله من أجناس البَشر عرباً أو عجماً ؟

إنما رجحت فى ميزان الحق ؛ لأنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله .

وقبل ذلك بآيات قال الله تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٢) .

ومعناها على أحد التفسيرين : اجعلوا من أنفسكم أمة الدعوة والأمر والنهى، فبهذا تستحقون أن يُقصر الفلاح عليكم . و « من » هنا تجريدية لا تبعيضية .

وعلى التفسير الآخر : هيئوا منكم طائفة متماسكة قادرة على الدعوة والأمر والنهى . ولتسقط فرض الكفاية عنكم ، وتكونوا أنتم عوناً لها .

إن رسالة الإسلام رسالة عالَمية ، رسالة لكل الأجناس ، ولكل الألوان ، ولكل الأقاليم ، ولكل الشعوب ، ولكل اللغات ، ولكل الطبقات . كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (٣) .

﴿ تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ (٤) .

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾ (٥) .

---

(١) آل عمران : ١١٠ (٢) آل عمران : ١٠٤ (٣) الأنبياء : ١٠٧
(٤) الفرقان : ١ (٥) الأعراف : ١٥٨

وعلى الأمة المسلمة أن تدعو الناس جميعاً إلى الإسلام بألسنتهم حتى نبيِّن لهم ، ونقيم الحُجَّة عليهم ، وأن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، حتى لا تُلعن كما لُعنَ الذين من قبلها حين فرَّطوا فى هذا الواجب ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِى إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ * كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ، لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ (١) .

● الوحدة :

والوصف الرابع : الوحدة . فالأمة التى يريدها الإسلام أمة واحدة ، وإن تكونت من عروق وألوان وطبقات ، فقد صهرها الإسلام جميعاً فى بوتقته ، وأذاب الفوارق بينها ، وربطها بالعروة الوثقى لا انفصام لها .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ (٢) .

ويقول سبحانه : ﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ (٣) .

وكيف لا تكون هذه الأمة واحدة ، وقد وحَّد الله عقيدتها وشريعتها ، ووحَّد غايتها ، ووحَّد منهاجها ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِى مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ (٤) .

أمة ربها واحد هو الله ، ونبيها واحد هو محمد ﷺ ، وكتابها واحد هو القرآن ، وقبلتها واحدة هى الكعبة البيت الحرام ، وشريعتها واحدة هى شريعة الإسلام ، ووطنها واحد هو « دار الإسلام » على اتساعها ، وقيادتها واحدة تتمثل فى «خليفة المسلمين » وأمير المؤمنين ، الذى يُجسِّم الوحدة السياسية للأمة .

---

(١) المائدة : ٧٨ - ٧٩
(٢) الأنبياء : ٩٢
(٣) المؤمنون : ٥٢
(٤) الأنعام : ١٥٣

ولهذا رفض الإسلام أن يكون للمسلمين خليفتان فى وقت واحد ، حرصاً على وحدة الأمة ، ومنعاً لتفرق كلمتها ، وشتات أمرها .

ولهذا لا يجوز أن نقول فى تعبيرنا : الأمم الإسلامية ، بل الأمة الإسلامية ، فهى أمة واحدة كما أمر الله ، وليست أمماً متفرقة ، كما أراد الاستعمار .

يقول الله تعالى : ﴿ وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ (١) .

ويقول : ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢) .

ولقد نبَّه القرآن على دسائس بعض أهل الكتاب الذين يسعون جهدهم لتمزيق شمل المسلمين ، وإثارة النعرات العصبية بينهم ، فقال تعالى محذراً : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقاً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾ (٣) .

وسبب نزول الآية الكريمة وما بعدها يدل على أن المقصود : يردوكم بعد وحدتكم متفرقين ، وبعد أخوَّتكم متعادين .

إن وحدة الأمة توجب عليها أن تجعل أخوتها الإسلامية فوق كل العصبيات ، فقد جعلها الله تعالى معبِّرة عن الإيمان ومجسدة له : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (٤) .

وقال رسوله الكريم ﷺ : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه » (٥) أى لا يخذله عند الشدة أو عند الاعتداء عليه ، بل ينصره ويسانده . وهذا هو مقتضى الأخوة . وهو ما يؤكده الحديث الآخر : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، يسعى بذمتهم أدناهم ، ويجير عليهم أقصاهم ، وهم يد على مَن سواهم » (٦) .

---

(١) آل عمران : ١٠٣ (٢) آل عمران : ١٠٥ (٣) آل عمران : ١٠٠

(٤) الحجرات : ١٠ (٥) متفق عليه عن ابن عمر كما فى صحيح الجامع الصغير .

(٦) رواه أبو داود فى الجهاد (٢٧٥١) وابن ماجه (٢٨٥٢) عن عبد الله بن عمرو .

ويُحذِّر الإسلام أبلغ التحذير من تعادى أبناء الأمة الواحدة إلى حد أن يحارب بعضها بعضاً، كما كانت تفعل قبائل الجاهلية . يقول ﷺ : « لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » (١) ، « سباب المسلم فسوق ، وقتاله كفر »(٢) .

* * *

● الإيمان بالأمة لا ينفى خصوصيات الأقوام :

ومن المفيد هنا أن ننبِّه على قضية ذات شأن ، وهى : أن الإيمان بـ « الأمة » المؤسسة على عقيدة الإسلام ، وأخوّة الإيمان ، والتى تضم جميع المسلمين فى رحابها حيث كانوا - لا ينبغى أن هناك خصوصيات معيِّنة لكل قوم ، يعتزون بها ، ويحافظون عليها ، ولا يُفرِّطون فيها ، ولا مانع من ذلك إذا لم تتحول إلى عصبية عِرقية تقاوم أخوة الإسلام ، أو إلى نزعة أنانية انفصالية تهدد وحدة دولة الإسلام .

ولقد ترك الرسول ﷺ وأصحابه من بعده القبائل تقاتل تحت راياتها ، تحت القيادة الإسلامية العامة ، ليكون ذلك مصدراً إضافياً لحماسهم وإقدامهم ، حتى لا يجلبوا العار على أقوامهم وعشائرهم .

إنَّ حب الرجل لقومه وعشيرته ورغبته فى جلب الخير لهم ، ودفع الشر عنهم ، نزعة فطرية لا غبار عليها ، ولا خطر فيها . كما لا خطر فى حبه لأسرته ، واهتمامه بها ، ولا غرو أن أمر الرسول بتعلم الأنساب لما وراءها من تواصل فى الأرحام وإن تباعدت : « تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم » (٣) .

وفى الحديث : « خيركم المدافع عن عشيرته ما لم يأثم » (٤) .

---

(١) متفق عليه عن جرير بن عبد الله كما فى اللؤلؤ والمرجان (٤٤) وعن ابن عمر (٤٥) .
(٢) متفق عليه عن ابن مسعود كما فى اللؤلؤ والمرجان (٤٣) .
(٣) رواه الترمذى فى البِّر والصلة عن أبى هريرة وقال : غريب من هذا الوجه (١٩٨٠) وأحمد (٣٧٤/٢) والحاكم وصححه ووافقه الذهبى (١٦١/٤) .
(٤) رواه أبو داود من حديث سراقة بن مالك فى الأدب (٥١٢٠) وفيه أيوب بن سويد ، ضعيف .

إنَّ الخطر إنما يتمثل فيما إذا وقف قومه موقفاً معادياً للإسلام ، وحادوا الله ورسوله ، هنا تحرم الموادة والموالاة ، ولو كانت لأقرب الناس للإنسان ، كأمه وأبيه وزوجه وأخيه .

يقول تعالى : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُواْ آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ (١) .

ويقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ ، وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٢)

لا بأس أن يحب الرجل أسرته ، ويحب قومه وعشيرته ، ولكن إذا تعارض ذلك مع حب الله ورسوله . فإن حب الله ورسوله أغلى من كل شئ . هنا يتغنى المسلم بقول القائل :

أبى الإسلام لا أب لى سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم !

هنا يقول المسلم ما قاله سلمان رضى الله عنه حين سُئل : ابن مَن أنت ؟ فقال: أنا ابن الإسلام !

* * *

(١) المجادلة : ٢٢ (٢) التوبة : ٢٣ - ٢٤

● القومية عند حسن البنا :

ولقد كان هذا المعنى واضحاً عند الإمام البنا ، فلم يرفض فكرة « القومية » رفضاً كلياً ، ولم يقبلها قبولاً مطلقاً ، بل فصَّل فيها كما فصَّل فى « الوطنية» قال رضى الله عنه :

« إن كان الذين يعتزون بمبدأ « القومية » يقصدون به أن الأخلاف يجب أن ينهجوا نهج الأسلاف فى مراقى المجد والعظمة ومدارك النبوغ والهمة وأن تكون لهم بهم فى ذلك قدوة حسنة ، وأن عظمة الأب مما يعتز به الابن ويجد لها الحماس والأريحية بدافع الصلة والوراثة ، فهو مقصد حسن جميل نشجعه ونأخذ به ، وهل عُدَّتنا فى إيقاظ همة الحاضرين إلا أن نحدوهم بأمجاد الماضين؟

ولعل الإشارة إلى هذا فى قول رسول الله ﷺ : « الناس معادن ، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا » [1] فها أنت ذا ترى أن الإسلام لا يمنع من القومية بهذا المعنى الفاضل النبيل .

وإذا قُصِدَ بالقومية أن عشيرة الرجل وأُمته أولى الناس بخيره وبره وأحقهم بإحسانه وجهاده فهو حق كذلك ، ومن ذا الذى لا يرى أولى الناس بجهوده قومه الذين نشأ فيهم ونما بينهم ؟

لعَمــرى لرهط المرء خير بقية عليه وإن عالوا به كل مركب

وإذا قُصِدَ بالقومية أننا جميعاً مبتلون مطالَبون بالعمل والجهاد فعلى كل جماعة أن تحقق الغاية من جهتها حتى تلتقى إن شاء الله فى ساحة النصر فنِعْمَ التقسيم هذا ، ومَن لنا بمن يحدو الأمم الشرقية كتائب كل فى ميدانها حتى نلتقى جميعاً فى بحبوحة الحرية والخلاص ؟

كل هذا وأشباهه في معنى القومية جميل معجب لا يأباه الإسلام ، وهو مقياسنا ، بل ينفسح صدرنا له ونحض عليه .

---

(١) متفق عليه عن أبى هريرة كما فى صحيح الجامع الصغير .

أما أن يُراد بالقومية إحياء عادات جاهلية درست ، وإقامة ذكريات بائدة خلت وتعفية حضارة نافعة استقرت ، والتحلل من عُقدة الإسلام ورباطه بدعوى القومية والاعتزاز بالجنس ، كما فعلت بعض الدول فى المغالاة بتحطيم مظاهر الإسلام والعروبة ، حتى الأسماء وحروف الكتابة وألفاظ اللغة ، وإحياء ما اندرس من عادات جاهلية ، فذلك فى القومية معنى ذميم وخيم العاقبة سئ المغبة ، يؤدى بالشرق إلى خسارة فادحة يضيع معها تراثه وتنحط بها منزلته ويفقد أخص مميزاته وأقدس مظاهر شرفه ونبله ، ولا يضر ذلك دين الله شيئاً : ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَستَبدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُواْ أَمْثَالَكُم ﴾ (١) .

وأما أن يُراد بالقومية الاعتزاز بالجنس إلى درجة تؤدى إلى انتقاص الأجناس الأخرى والعدوان عليها والتضحية بها فى سبيل عزة أمة وبقائها ، كما تنادى بذلك ألمانيا وإيطاليا مثلاً ، بل كما تدَّعى كل أمة تنادى بأنها فوق الجميع،فهذا معنى ذميم كذلك ليس من الإنسانية فى شئ ، ومعناه أن يتناحر الجنس البَشرى فى سبيل وهم من الأوهام لا حقيقة له ولا خير فيه .

الإخوان المسلمون لا يؤمنون بالقومية بهذه المعانى ولا بأشباهها ولا يقولون فرعونية وعربية وفينيقية وسورية ولا شيئاً من هذه الألقاب والأسماء التى يتنابز بها الناس ، ولكنهم يؤمنون بما قال رسول الله ﷺ الإنسان الكامل بل أكمل معلم علَّم الإنسان الخير : « إنَّ الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظُّمَها بالآباء ، الناس لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى » (٢) ما أروع هذا وأجمله وأعدله ، الناس لآدم فهم فى ذلك أكفاء ، والناس يتفاضلون بالأعمال فواجبهم التنافس فى الخير ؛ دعامتان قويتان لو بنيت عليهما الإنسانية لارتفعت بالبَشر إلى علياء السموات ؛ الناس لآدم فهم إخوان فعليهم أن يتعاونوا وأن يسالِم بعضهم بعضاً ، ويرحم بعضهم بعضاً ، ويدل

---

(١) محمد : ٣٨

(٢) رواه أبو داود فى الأدب (٥١١٦) والترمذى فى المناقب وحسَّنه (٣٩٥٠) وأحمد والبيهقى عن أبى هريرة . انظر : كتابنا (المنتقى من الترغيب والترهيب) ط . حديث (١٧٩٢).

بعضهم بعضاً على الخير ، والتفاضل بالأعمال . فعليهم أن يجتهدوا كل من ناحيته حتى ترقى الإنسانية ، فهل رأيت سمواً بالإنسانية أعلى من هذا السمو أو تربية أفضل من هذه التربية ؟

● خواص العروبة :

« ولسنا مع هذا ننكر خواصَّ الأمم ومميزاتها الخُلُقية ، فنحن نعلم أن لكل شعب مميزاته وقسطه من الفضيلة والخُلُق ، ونعلم أن الشعوب فى هذا تتفاوت وتتفاضل ، ونعتقد أن العروبة لها من ذلك النصيب الأوفى والأوفر ، ولكن ليس معنى هذا أن تتخذ الشعوب هذه المزايا ذريعة إلى العدوان ، بل عليها أن تتخذ ذلك وسيلة إلى تحقيق المهمة السابقة التى كُلِّفها كل شعب ، تلك هى النهوض بالإنسانية ، ولعلك لستَ واجداً فى التاريخ مَن أدرك هذا المعنى من شعوب الأرض كما أدركته تلك الكتيبة العربية من صحابة رسول الله ﷺ » ا هـ .

وبهذا لم ير الإمام البنا أن يقيم تعارضاً لاضرورة له بين العروبة والإسلام .

* * *

● مكانة الجهاد فى دعوة الإمام البنا :

قلنا : إنَّ من المبادئ التى حرص الإمام الشهيد رحمه الله على توضيحها وإثباتها مبدآن أساسيان هما : الدولة والجهاد . فقد حرصت القوى المعادية على حذفهما من الإسلام ، وذلك لتحكم الأمة بما تريد ، وكما تريد ، ما دام الإسلام مجرد دين لا دولة له ، ولتحكمها كذلك بلا مقاومة ، ما دام الإسلام مستأنساً بلا جهاد .

وقد تحدثنا عن فكرة « الدولة » ومكانتها فى الإسلام والآن نتحدث عن « الجهاد » الذى قامت دعوات مشبوهة ، بل مكشوفة القناع « كالقاديانية » وغيرها تنادى بإلغائه ، وأن عصره قد انتهى ، بعد زمن الصحابة . ولهذا رأينا حسن البنا يركِّز على هذا المبدأ فى الأصل الأول من أصوله العشرين ويُعلِّم جنود

حركته فى كلمات مركّزة أن الإسلام « جهاد ودعوة » أو « جيش وفكرة » كما هو « عقيدة سليمة ، وعبادة صحيحة سواءً بسواء » .

وفى الواقع أنّ دعوة الإخوان المسلمين التى أسسها حسن البنا قامت من أول يوم بجعل « الجهاد » شعاراً لها ، وطريقاً لتحقيق أهدافها . ولم تقتصر جهودها على التربية الروحية والخُلقية فحسب ، كما يفعل رجال التصوف - أعنى المخلصين المتبعين منهم - وإن عنيت بذلك كل العناية . ولم تكتف أيضاً بنشر العلم والوعى ، كما فعل بعض المصلحين الإسلاميين ، وإن اهتمت بذلك أبلغ الاهتمام .

فلا عجب أن كان شعار الجماعة وهتافها : « الجهاد سبيلنا ، والموت فى سبيل الله أسمى أمانينا » .

كما أنّ البنا رحمه الله قال فى مذكراته منذ عهد مبكر : إنه أراد بدعوته أن تكون دعوة عامة قوامها العلم والتربية والجهاد وكانت التربية الجهادية إحدى شُعَب التربية الإخوانية الأساسية [1] .

وكان من الأوصاف البارزة لرجال الدعوة أنهم « رهبان الليل وفرسان النهار » .

وكانت شارة الإخوان عبارة عن « مصحف يحيط به سيفان » وتحته كلمة « وأعدوا » إشارة إلى الآية الكريمة من سور الأنفال : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ .. ﴾ [2] . وإيماءً إلى أن الحق لا يعيش ما لم تسنده القوة .

ومن الكلمات التى يحفظها الإخوان : « الإسلام دين ودولة ، عبادة وقيادة ، صلاة وجهاد ، مصحف وسيف » .

---

(١) انظر : كتابنا « التربية الإسلامية ومدرسة حسن البنا » .

(٢) الأنفال : ٦٠.

ومن أناشيدهم :

هو الحق يحشد أجناده ويعتد للموقف الفاصل !
فصفوا الكتائب آساده ودكوا به دولة الباطل !

ويصف هذا النشيد رجال الدعوة بقوله :

رقاق إذا ما الدجى زارنا غمرنا محاريبنا بالحزن
وجند شـــــداد إذا رامنا لبأس رأى أُسُداً لا تهن
أخا الكفر إما تبعت الهدى فأصبحت فينا الأخ المفتدى
وإما اعتديت فنحن الكماة نقاضى إلى الروع مَن هددا
إذن لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ،لن تُنجدا
فإنّا نصـــول بروح الإله ونقفو ركاب نبـــى الهدى

نوّه الإمام الشهيد بالجهاد فى كل المناسبات ، وكتب فى ذلك رسالة نقل فيها أقوال العلماء من جميع المذاهب على وجوب الجهاد ، وبيّن منه ما هو فرض كفاية وما هو فرض عين ، ثم قال :

« فها أنت ذا ترى من ذلك كله كيف أجمع أهل العلم مجتهدين ومقلّدين ، سَلَفيين وخَلَفيين ، على أن الجهاد فرض كفاية على الأمة الإسلامية ، لنشر الدعوة ، وفرض عين لدفع هجوم الكفار عليها . والمسلمون الآن كما تعلم مستذلون لغيرهم محكومون بالكفار ، قد ديست أرضهم وانتهكت حرماتهم ، وتحكم فى شؤونهم خصومهم ، وتعطلت شعائر دينهم فى ديارهم ، فضلاً عن عجزهم عن نشر دعوتهم . فوجب وجوباً عينياً لامناص منه أن يتجهز كل مسلم وأن ينطوى على نيّة الجهاد وإعداد العُدَة له ، حتى تحين الفرصة ويقضى الله أمراً كان مفعولاً .

ولعل من تمام هذا البحث أن أذكر لك أن المسلمين فى أى عصر من عصورهم، قبل هذا العصر المظلم الذى ماتت فيه نخوتهم ، لم يتركوا الجهاد ولم يفرّطوا فيه حتى علماؤهم والمتصوفة منهم والمحترفون وغيرهم ، فكانوا جميعاً على أهبة الاستعداد ، كان عبد الله بن المبارك الفقيه الزاهد متطوعاً فى أكثر أوقاته بالجهاد ، وكان عبد الواحد بن زيد الصوفى الزاهد كذلك ، وكان شقيق البلخى شيخ الصوفية فى وقته يحمل نفسه وتلامذتَه على الجهاد .

وكان البدر العينى شارح البخارى الفقيه المحدّث يغزو سنة ويدرس العلم سنة ويحج سنة ، وكان القاضى أسد بن الفرات المالكى أميراً للبحر فى وقته ، وكان الإمام الشافعى يرمى عشرة ولا يخطئ .

كذلك كان السَلَف رضوان اللّه عليهم ، فأين نحن من هذا التاريخ ؟ [1] » ا هـ .

● مكانة الجهاد فى الإسلام :

لم يكتف الإسلام من المسلم أن يعبد اللّه فى نفسه بالصلاة والصيام والدعاء والتسبيح بالعشىّ والإبكار .

ولم يكفه منه أن يعبده تعالى ببذل جزء من ماله زكاة وطُهرة ومواساة للضعفاء .

أجل ، لم يكفه ذلك من المسلم ، ما دام فى الدنيا باطل يناوئ الحق ، وشر يغالب الخير ، وفساد يقف أهله فى وجه الإصلاح والمصلحين .

لم يرض من المسلم أن يلزم بيته ، ويغلق عليه بابه ، ويترك أبالسة الشر ، وطواغيت الباطل ، يعيثون فى الأرض فساداً ، ويفعلون بالحقائق والقيم الرفيعة ما تفعل النار بالهشيم ، ويكتفى هو بالحوقلة والاسترجاع ، والتسبيح والتهليل!

ولكنه فرض على المسلم عبادة يُسهِم بها فى مقاومة الشر ، كما أسهم بعبادة الزكاة فى فعل الخير .

تلك هى عبادة « الجهاد فى سبيل اللّه » .

أمر المسلم بهذه الفريضة كما أمر بالصلاة والصيام والزكاة ، سواءً بسواء: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيْهِ الوَسِيلَةَ وَجَاهِدُواْ فِى سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [2] ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُواْ وَاسْجُدُواْ وَاعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَافْعَلُواْ الخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَجَاهِدُواْ فِى اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ، هُوَ اجْتَبَاكُمْ ﴾ [3] .

---

(١) من رسالة الجهاد للإمام البنا .

(٢) المائدة : ٣٥ (٣) الحج : ٧٧ - ٧٨

وجعل هذا الجهاد من دلائل الإيمان بالحق ، وأنكر على قوم زعموا الإيمان من غير استعداد للبذل والجهاد : ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا ، قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَكِن قُولُواْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ (١) ، ثم بيّن تعالى مَن هم المؤمنون حقًا فقال : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ، أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ (٢) .

وفى كل مجتمع يوجد أفراد ينزعون إلى الزهد فى الدنيا ، والزهد فى لقاء الناس ، والرغبة فى الانقطاع إلى العبادة .

ولكن نبى الإسلام يُوجِّه الطاقات الروحية عند هؤلاء إلى ساحة الجهاد الرحبة ، بدل الصومعة الضيِّقة .

وما أعظم الفرق بين صاحب الصومعة وصاحب الجهاد ! ذاك يفر من الشر خائفاً ، وهذا يهاجمه واثقاً . ذاك يعيش فى حدود نفسه ، وهذا يعيش لأبناء جنسه .

ولهذا أوصى الرسول صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه فقال : « وعليك بالجهاد ، فإنه رهبانية الإسلام » (٣) .

وقال أبو هريرة : « مَرَّ رجل من أصحاب النبى ﷺ على شِعْب (وهو المنفرج بين جبلين) فيه عيينة (أى عين صغيرة) من ماء عذبة ، فأعجبته لطيبها .

فقال : لو اعتزلتُ الناس فأقمتُ فى هذا الشِعْب ؟ ولن أفعل حتى أستأذن رسول الله ﷺ ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال : « لا تفعل ، فإنَّ مقام أحدكم فى

---

(١) الحجرات : ١٤ (٢) الحجرات : ١٥

(٣) رواه أحمد عن أبى سعيد الخدرى ورواته ثقات كما فى « التيسير » للمناوى ، وحسنه فى صحيح الجامع الصغير .

سبيل الله أفضل من صلاته فى بيته سبعين عاماً !! ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة ؟ اغزوا فى سبيل الله . مَن قاتل فى سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة » [1] - وفواق الناقة ما بين رفع اليد عن ضرعها وقت الحلب ووضعها، وقيل : ما بين الحلبتين .

* * *

● سر فرضيَّة الجهاد فى الإسلام :

إنَّ المسلم صاحب رسالة عالَمية شاملة لا يصلح لحملها السلبيون والانعزاليون ، وإنما يحملها الإيجابيون المجاهدون ..

رسالة غايتها أن يسود الحق والعدل وتعلو كلمة الله فى أرضه .

رسالة جاءت لتقاوم الضعف فى النفوس ، والزيغ فى العقول ، والانحراف فى السلوك ، والبغى فى الجماعات ، والطغيان فى الحكومات ، والتظالم بين الأمم والشعوب .

رسالة جاءت لتحطم الوساطة المصطنعة بين الله وعباده ، وتحطم الفوارق المفتعلة بين الناس بعضهم وبعض .

رسالة تقول للضعفاء : شدوا سواعدكم . وتصيح فى الاذلاء : ارفعوا رؤوسكم . وتصرخ فى النائمين : هبوا من سباتكم . وتنادى المستعبَدين : حطموا قيودكم ، وتدعو المستكبرين : أن انزلوا من عروش كبريائكم .

تقول للأغنياء : أنفقوا من مال الله لا من أموالكم .

---

(١) رواه الترمذى وحسنه (١٦٥ .) والحاكم وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبى (٢/٦٨) وفيه « ستين عاماً » لا « سبعين » . وكذا رواه أحمد عن أبى أمامة بأطول منه .

وتقول للحكّام : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالعَدْلِ ﴾ (١) .

وتقول للمتفاخرين بالأنساب : مَن بطَّأ به عمله لم يُسرع به نَسبه .

وتقول للمتسلطين على الضمائر من أهل الكتاب : ﴿ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ (٢) .

وتقول للناس جميعاً : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُم عِندَ اللَّهِ أَتقَاكُمْ ﴾ (٣) .

ومثل هذه الرسالة الشاملة ، لا بد أن يكون لها خصوم معاندون ، وأعداء مكابرون ، يدافعون عن مصالحهم ، وينافحون عن نفوذهم ووجودهم ، فلا غرابة أن يردوا حقها بالقوة ، ويصادروا دعوتها بالسيف ، ويصدوا دعاتها بالجبروت والعسف .

ولا يمكن لمثل هذه الرسالة العامة الخالدة أن تغمض العين على القذى ، وتسحب الذيل على الأذى ، وترضى من الغنيمة بالإياب ، وتدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله !! بله أن تدع قيصر يغتصب حق الله .

لقد آن الأوان أن يعلم الناس أن قيصر وما لقيصر لله الواحد القهّار . إن حكم الله لا يخضع لقيصر ، ولكن قيصر هو الذى يخضع لحكم الله .

وإذن فلا بد لهذه الرسالة ودعاتها من صدام مع الطغاة والمتجبرين ، مع القياصرة وأشباه القياصرة ، مع أدعياء الألوهية بالقول أو بالفعل .

فعلى المسلم أن يُعد العُدَّة ، ويأخذ الأهبة ، ويشهر سيف الحق ليقاوم الباطل، ويحمل معول التطهير ، ليهدم صروح التأله فى الأرض ، ويثل عروش الطغيان

---

(١) النساء : ٥٨ (٢) آل عمران : ٦٤ (٣) الحجرات : ١٣

والاستكبار ويرسى دعائم الحرية للعقائد كلها ﴿ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ (١) .

فمن فَهِمَ طبيعة الرسالة الإسلامية ، لم يصعب عليه تصور الجهاد فريضة من فرائضها ، وعبادة من عباداتها .

ولقد كان الله تعالى ينتقم لرسله والمؤمنين - قبل الإسلام - من الطغاة المكذِّبين بنقم سماوية ، وخوارق كونية ، يُنزلها بأعدائه فتدمِّر عليهم ، وتجعلهم حصيداً خامدين . كما فعل بقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وفرعون وهامان وقارون وغيرهم . قال تعالى : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ، فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٢) .

ولكن الله فَضَّل هذه الأمة الخاتمة فلم يجعل الخوارق الكونية أساساً فى ثبوت رسالتها ، ولا فى نُصرة دعوتها (٣) . ولو شاء الله لخسف بأعدائها الأرض ، أو أسقط عليهم كِسَفاً من السماء ، وأراح رسوله والمؤمنين من عناء الجهاد .

بَيْدَ أن الله تعالى كرَّم هذه الأمة ، وأسبغ عليها فضله ، وأتم عليها نعمته ، فكلَّفها عبء الجهاد بالأموال والأنفس فى سبيل الله ، ومدافعة الباطل بما معها من حق ، مُعِدَّة لأعدائها ما استطاعت من قوة ، ومعتمدة بعد ذلك على الله تبارك وتعالى . ولهذا أنكر القرآن على فريق من الصحابة - رضوان الله عليهم

---

(١) الأنفال : ٣٩ (٢) العنكبوت : ٤٠

(٣) قلت : لم يجعلها أساساً ، بمعنى أنها ليست هى الأصل والعمدة فى ذلك ، وهذا لا ينفى أن تكون هناك خوارق كثيرة لتأييد نبوة رسول الله ﷺ بعد معجزته الكبرى وآيته العظمى ، وهى القرآن . بل هذا ما ثبت بالفعل ثبوتاً مستفيضاً قاطعاً . كما لا ينفى أن يقع كثير من الخوارق ، نصرة للمؤمنين ، منذ عهد النبى ﷺ ، مثل نزول الملائكة فى بدر والخندق وحنين ، وغير ذلك ، مما حفلت به الكتب والمصادر الموثقة .

- كراهيتهم للقاء المشركين فى بدر ، فقال تعالى : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ من بَيْتِكَ بالحَقِّ ، وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمنينَ لَكَارِهُونَ * يُجَادِلُونَكَ فى الحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْت وَهُمْ يَنْظُرونَ * وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّدنَ أَنَّ غَيْرَ ذَات الشَّوْكَة تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بكَلمَاته وَيَقْطَعَ دَابِرَ الكَافِرِينَ * لِيُحِقَّ الحَقَّ وَيُبْطِلَ البَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ (١) .

ثم إنَّ حياة الإنسان قائمة على الابتلاء ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ من نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيه ﴾ (٢) ، ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِى كَبَدٍ ﴾ (٣) وابتلاء الإنسان المؤمن أشد من غيره ، لأنه صاحب دعوة ، وحامل رسالة . وكذلك الجماعة المؤمنة المبتلاة بالجماعات الكافرة ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّه النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى العَالَمِينَ ﴾ (٤) .

ومما لا ريب فيه أن التكليف الذى ميَّز الله به هذا النوع من المخلوقات - آدم وذُرِّيته - قائم على الابتلاء . وعلى أساسه قام الثواب والعقاب ، وقامت سوق الجنة والنار .

فقد شاء الله أن تقوم هذه الحياة ، وهذا الكون على الازدواج : الخير مشوب بالشر ، واللذة ممزوجة بالألم ، والنهار يعقبه ليل ، وهكذا : فى الكون المادى نور وظلام . وفى العوالم الغيبية ملائكة وشياطين . وفى بنى الإنسان أخيار وأشرار وفى النفس الإنسانية خواطر يلهمها مَلَك ، ونزغات يوسوس بها شيطان .

وقد ابتلى الله المؤمنين بالكافرين ، كما ابتلى الكافرين بالمؤمنين ، وأعطى كُلاً منهم عُدَده وأسلحته وأعوانه ، وجعل بعضهم لبعض فتنة ليبلو أخبارهم ، ويمتحن

---

(١) الأنفال : ٥ - ٨ (٢) الإنسان : ٢

(٣) البلد : ٤ (٤) البقرة : ٢٥١

مَن يتولاه ويتولى رسله ممن يتولى الشيطان وحزبه . وفى ذلك يقول سبحانه : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ، وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً ﴾ (١) ، ﴿ ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ﴾ (٢) ، ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴾ (٣) ، وهو تعالى عليم بذات الصدور ، ولا تخفى عليه خافية فى الأرض أو فى السماء . ولكنه يعامل عباده معاملة المختبر ، ليجزيهم بما عملوا لا بما عَلِمَ أنهم سيعملونه ، ويقيم عليهم الحُجَّة ، ويُبطل الأعذار والتعلات ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ﴾ (٤) .

● شبهة مردودة :

ولقد زعم بعض المتحاملين على الإسلام أن الإسلام شهر السيف ليُكره الناس على الدخول فيه ، ونسى هؤلاء أن طبيعة الإسلام ترفض الإيمان إذا لم يأت عن طريق الاقتناع والاختيار الحر . وقد قال الله تعالى لرسوله فى القرآن المكى : ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (٥) ، وقال تعالى فى القرآن المدنى : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ ، قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَىِّ ﴾ (٦) .

وما كان الجهاد في الإسلام إلا لرد العدوان وإزاحة قوى الطغيان ، ليختار الإنسان لنفسه ، ويقرر مصيره بإرادته دون فتنة ولا اضطهاد .

لقد بُعِثَ رسول الله ﷺ بالرسالة الخاتمة ، وقام يدعو الناس إلى التحرر من العبودية لغير الله : من العبودية للأوثان ، ومن العبودية للطبيعة ، ومن العبودية لكل الأشياء ، فى الأرض أو فى السماء ، ومن العبودية للأشخاص أياً كانوا: مرئيين من الإنس ، أو مستورين من الجن ، أو الملائكة . ومن العبودية للأوهام والأهواء أياً كان نوعها .

---

(١) الفرقان : ٢٠ (٢) محمد : ٤ (٣) محمد : ٣١

(٤) الأنعام : ١٤٩ (٥) يونس : ٩٩ (٦) البقرة : ٢٥٦

دعا إلى ذلك المشركين الذين اتخذوا مع الله آلهة أخرى مما يُرى وما لا يُرى ، حتى عبدوا الأحجار ، واتخذوا أرباباً من العجوة إذا جاعوا أكلوها : ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ﴾ (١) .

ودعا إلى ذلك أهل الكتاب الذين حرَّفوا كتبهم ، وبدَّلوا دينهم ، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله .

ولهذا كان عليه الصلاة والسلام يختم دعوته إلى رؤسائهم بهذه الآية الكريمة: ﴿ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ، أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً ، وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾(٢) .

ولكن المشركين وأهل الكتاب وقفوا في وجه هذا الدعوة التحريرية المخلصة ، رغم أن صاحبها لم يدعهم إليها إلا بالحكمة والموعظة الحسنة ، ولم يجادلهم إلا بالتي هي أحسن . تالياً عليهم : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ (٣) ، ﴿ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ، أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِئٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾(٤) .

ولكن القوم أبوا أن يعاملوه بالمثل ، بل كان منطقهم يقول : لنا ديننا ، وليس لك دينك ، ولنا عملنا ، وليس لك عملك . من حق الحجر أن يُعبد ، وليس من حق الله أن يُوحَّد . لأهل الأوثان أن تكون لهم السُلطة والسيادة ، وليس لأهل التوحيد إلا المطاردة أو الإبادة .

ومن هنا كان الإيذاء والتعذيب ، وكانت المقاطعة والتجويع ، ثم كانت الهجرة والإخراج من الديار . ولا جريمة لصاحب الدعوة والمؤمنين معه إلا الإيمان بالله والدعوة إلى توحيده .

---

(١) الحج : ٧٣
(٢) آل عمران : ٦٤
(٣) الكافرون : ٦
(٤) يونس : ٤١

فلا عجب أن أذنَ الله للرسول والمؤمنين أن يدافعوا عن أنفسهم ، ويذودوا عن دعوتهم وحريّاتهم ، بل حرية أهل الأديان جميعاً ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا اللَّهُ ، وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً ، وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (١) . وتتالت أوامر القرآن تعد الأمة للجهاد وقتال قوى الشرك كما تقاتل هى الإسلام ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٢) .

كما أن الجهاد فى الإسلام ليس لتحقيق هدف استعمارى أو مغنم دنيوى ، ولو شابه شئ من ذلك لم يعد جهاداً فى سبيل الله ، وبطل أجر صاحبه ، بل كان من أول من تُسعّر بهم النار .

فقد سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل للمغنم ، أو حميّة (أى عصبية لقومه) أو ليُرى مكانه ، فكان جوابه القاطع : « مَن قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » (٣)

إن الجهاد هو ذروة سنام الإسلام . وهو جهاد فى سبيل الله لا فى سبيل الطاغوت . وهو جهاد لمقاومة طغيان الباطل لا لإكراه الناس على الحق ، وهو شُعبة من رسالة المسلم فى الحياة ، إلى جوار العبادة لله ، وفعل الخير للناس. ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ارْكَعُواْ وَاسْجُدُواْ وَاعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَافْعَلُواْ الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ* وَجَاهِدُوا فِى اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ، هُوَ اجْتَبَاكُمْ .. ﴾ (٤) .

فلا عجب أن جعله الأستاذ البنا جزءاً أساسياً من أجزاء الإسلام « فهو جهاد ودعوة ، وجيش وفكرة » كما أنه عقيدة وعبادة سواءً بسواءٍ .

* * *

(١) الحج : ٣٩ - ٤٠
(٢) التوبة : ٣٦
(٣) متفق عليه عن أبى موسى
(٤) الحج : ٧٧ - ٧٨

ملاحظتان حول فكرة الشمول الإسلامى

وأود هنا أن أبرز ملاحظتين هامتين :

● الشمول والجزئيات :

الأولى : أن الشمول الإسلامى الذى يضم العقيدة والشريعة والأخلاق والآداب ، والتشريع والمعاملات ، والنُظم والحضارة .. إلخ - لا يعنى أنَّ الإسلام جاء بتفصيلات كاملة لجزئياتها ، وفصَّل كل شئ فيها تفصيلاً .

فهذا غير صحيح ، وهو ليس من الدين ولا الواقع فى شئ .

إن عناية الإسلام إنما هى بالكليات والمقاصد ، والقواعد الأساسية ، والأحكام الضابطة للأمور التى من شأنها الثبات ، ولو اختلفت الأزمان والبيئات والأحوال .

وفيما عدا ذلك ، يتخذ الإسلام أحد طريقين :

١ - إما أن يترك الأمر للناس ، ويسكت عن الحكم فيه ، رحمة بهم ، وتوسيعاً عليهم ، من غير نسيان ولا إهمال ، وهذه هى المنطقة التى سميناها « منطقة العفو » أخذاً من الحديث النبوى الذى رواه أبو الدرداء عن النبى ﷺ : « ما أحلَّ اللّه فى كتابه فهو حلال ، وما حرَّم فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عفو ، فاقبلوا من اللّه عافيته ، فإنَّ اللّه لم يكن لينسى شيئاً ، ثم تلا : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ (١) .

وهنا تختلف اجتهادات الفقهاء لملء هذه المنطقة بما لديهم من أدوات الاجتهاد، إما عن طريق القياس على المنصوص عليه بشروطه ، أو بطريق

---

(١) مريم : ٦٤ . والحديث رواه البزار ورجاله ثقات كما قال الهيثمى (٥٥/٧) والحاكم وصححه (٣٧٥/٢) ووافقه الذهبى .

الاستصلاح ، أو الاستحسان أو الاستصحاب أو غير ذلك من الأدلة التبعية ، التى أخذ بها مَن أخذ ، ورفضها من رفض ، وتوسع فيها قوم ، وضيَّق آخرون .

٢ - وإما أن ينص عليها نصاً إجمالياً ، على معنى أنه لا يتعرض للجزئيات والتفصيلات الكثيرة المتنوعة ، والمختلفة باختلاف الزمان والمكان والعُرف والحال ، ولهذا عُرِفَ باستقراء أحكام الشريعة ونصوصها : أنها تُفصِّل فيما شأنه الثبات وتُجمل فيما شأنه التغير .

ولهذا نجد موضوعاً مثل شئون الأسرة من زواج وطلاق ومواريث ، ونحوها ، فيه كثير من التفصيل فى أحكامه فى القرآن والسُنَّة ، لأن شأن الأسرة هو الثبات ، وعدم الخضوع للتقلبات والتغيرات .

على حين نجد موضوعاً مثل نظام الحكم ، وما يتعلق بتكوين الحكومة وشكلها ، وكيفية الشورى ... إلخ ... جاء فى الإسلام مجملاً غير مفصَّل ، لأن مثل هذا الموضوع قابل للتطور والتغير بتغير الزمان والمكان ، وأحوال الإنسان ، فالإلزام بصور أو أحكام مفصَّلة فيه يعوق انطلاق المجتمع ، ويُجمِّد حركته ، ويُقيِّد حريته .

* * *

الشمول لا يعنى إهمال مراتب الأعمال

والملاحظة الثانية : أن شمول الإسلام للعقائد والعبادات والأخلاق والآداب والمعاملات والنظم الاجتماعية المختلفة ، لا يعنى أن هذه الأمور كلها فى مرتبة واحدة ، بل هى متفاوتة بيقين فى منزلتها من الدين ، كما أن فى داخل كل منها ما يُعَد من الأصول ، وما يُعَد من الفروع ، ما هو من الأركان ، وما هو من المكملات ، ما هو من الفرائض وما هو من النوافل ، ما هو قطعى وما هو ظنى ، وما هو متفَق عليه وما هو مختلَف فيه ، ما هو فى مرتبة الضروريات ، وما هو فى مرتبة الحاجيات ، وما هو فى مرتبة التحسينات ، على حد تقسيم الأصوليين .

وهذا أمر جد مهم ، حتى يأخذ كل عمل مرتبته ، وتأخذ كل مرتبة حكمها ، ولا نذيب الفواصل بين الأعمال بعضها وبعض ، كما يفعل بعض الناس ، الذين يعاملون الفروع معاملة الأصول ، والسُنَن معاملة الفرائض ، والمكروهات كالمحرَّمات ، والأمور المختلف فيها كالأمور المتفَق عليها ، والظنيات كالقطعيات ، ولهذا تضطرب أحكامهم ، ويختلط عليهم الأمر ويبعدون عن سواء السبيل .

وهذا أمر نبهتُ على ضرورة الالتفات إليه فى أكثر من كتاب لى ، وخصوصاً فى كتابى « الصَحْوَة الإسلامية بين الجحود والتطرف » وقد سميته فيه « فقه مراتب الأعمال » الذى فرَّط فيه المسلمون فى الأعصار الأخيرة ، وأغفلوا فيه حفظ « النسب الشرعية » بين الأعمال بعضها وبعض .

كما أكدتُ ذلك فى كتابى « أولويات الحركة الإسلامية فى المرحلة القادمة » وأدخلتُ ذلك فيما سميته « فقه الأولويات » وهو يكمل فقهاً آخر ، هو « فقه الموازنات » والحركة الإسلامية المعاصرة أحوج ما تكون إليهما جميعاً .

قلت فى ذلك الكتاب :

« من فقه الأولويات : مراعاة النسب بين الأعمال والتكاليف الشرعية .

إنَّ الإخلال بالنسب التى وضعها الإسلام للتكاليف الشرعية يُحدث ضرراً بليغاً بالدين والحياة .

إن العقيدة فى الإسلام مُقَدَّمة على العمل ، لأنها الأساس ، والأعمال هى البناء ، ولا بناء بغير أساس .

وبعد العقيدة تأتى الأعمال وهى متفاوتة تفاوتاً بعيداً ، وقد جاء فى الحديث الصحيح : « الإيمان بِضْعٌ وسبعون شُعبة ، أعلاها : لا إله إلاَّ اللّه وأدناها إماطة الأذى عن الطريق » (١) .

والقرآن يُبيِّن لنا أن الأعمال تتفاضل عند اللّه ، وليست فى درجة واحدة ، يقول تعالى : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ، لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ (٢) .

ولهذا ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن جنس أعمال الجهاد أفضل من جنس أعمال الحج .

بل ذكر فقهاء الحنابلة وغيرهم أن الجهاد أفضل ما يُتَطوَّع به من أعمال البدن.

وفى فضل الجهاد جاءت أحاديث كثيرة منها ما رواه أبو ذر رضى اللّه عنه قال : قلت : يا رسول اللّه ، أى الأعمال أفضل ؟ قال : « الإيمان باللّه والجهاد فى سبيل اللّه » (٣) ..

---

(١) رواه مسلم وأصحاب السنن عن أبى هريرة كما فى الجامع الصغير .

(٢) التوبة : ١٩ - ٢٠ (٣) متفق عليه عن أبى ذر .

وقال صلى الله عليه وسلم لمن أراد الاعتزال للعبادة : « لا تفعل ، فإن مقام أحدكم فى سبيل الله تعالى أفضل من صلاته فى بيته سبعين عاماً » [1] .

وفى فضل الرباط جاء حديث سلمان مرفوعاً : « رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه ، وإن مات فيه جرى عليه عمله الذى كان يعمل ، وأُجْرِيَ عليه رزقه ، وأمِنَ من الفتّان » (رواه مسلم) .

وهذا ما جعل إماماً مثل عبد الله بن المبارك وهو فى أرض الرباط يكتب إلى صديقه الفضيل بن عِياض الزاهد العابد ، وهو ينتقل بين الحرمين مكة والمدينة متعبداً :

يا عـابدَ الحرمين لو أبصرتنا ... لعلمتَ أنك بالعبادة تلعبُ !

مَن كان يخضب خده بدموعه ... فنحـورنا بدمائنا تتخضبُ !

... إلى آخر الأبيات [2] .

ومن المقرر فقهاً : أن النافلة لا يجوز تقديمها على الفريضة ، وأن فرض العين مقدَّم على فرض الكفاية ، وأن فرض الكفاية - الذى لم يقم به أحد أو عدد يكفى - مقدَّم على فرض الكفاية الذى قام به مَن يكفى ويسد الثغرة . وأن فرض العين المتعلق بالجماعة والأمة مقدَّم على فرض العين المتعلق بحقوق الأفراد ، وأن الواجب المحدَّد الوقت ، والذى جاء وقته بالفعل ، مقدَّم على الواجب الموسَّع فى وقته .

ومن المقرر كذلك أن المصالح المقرَّرة شرعاً متفاوتة فيما بينها ، فالمصالح الضرورية مقدَّمة على الحاجية والتحسينية ، والمصالح الحاجية مقدّمة على

---

(١) رواه الترمذى ، وقال : حديث حسن ، والحاكم ، وقال : صحيح على شرط مسلم . وقد مضى بتمامه ص ٩٩ ، ١٠٠

(٢) ذكر القصة الحافظ ابن كثير فى تفسير آخر آية من سورة آل عمران ، كما ذكرها غيره من المؤرخين .

التحسينية ، والمصالح المتعلقة بمصالح الأمة وحاجاتها أولى بالرعاية من المصالح المتعلقة بالأفراد عند التعارض ، وهنا نجد فقه الموازنات يلتقى فقه الأولويات .

إنْ آفة كثير من فصائل الصَحْوَة الإسلامية هى غياب فقه الأولويات عنها ، فكثيراً ما تهتم بالفروع قبل الأصول ، وبالجزئيات قبل الكليات ، وبالمختلف فيه قبل المتفَق عليه ، وتسأل عن دم البعوض ، ودم الحسين مهراق ، ونُثير معركة من أجل نافلة ، وقد ضيَّع الناس الفرائض ، أو من أجل شكل أو هيئة ، دون اعتبار للمضمون .

وهذا هو الحال عند عموم المسلمين ، أرى الملايين يعتمرون تطوعاً كل عام فى رمضان وغيره ، ومنهم مَن يحج للمرة العاشرة أو العشرين ، ولو جُمِعَ ما ينفقه هؤلاء فى هذه النوافل لبلغ آلاف الملايين ، ونحن نلهث من عدة سنوات لتجميع ألف مليون دولار للهيئة الخيرية الإسلامية ، فلم نحصل على عُشر المبلغ ، ولا نصف عُشره ، ولا ثُلثه ! ولو قلتَ لهؤلاء المتطوعين بالعُمرة أو الحج : ادفعوا ما تنفقونه فى رحلتكم التطوعية لمقاومة التنصير أو الشيوعية فى آسيا وإفريقيا ، أو المجاعات هنا وهناك ، ما استجابوا لك ، وهذه آفة قديمة شكا منها أطباء القلوب [1] .

وإنَّ من فقه الأولويات : أن نعرف أى القضايا أولى بالاهتمام فتُعطى من الجهد والوقت أكثر مما يُعطَى غيرها .

وقد أنكر الإمام الغزالى فى « الإحياء » على بعض فرق العُبَّاد والمتصوفة غرورهم ببعض أنواع العبادة ، دون مراعاة لمراتب الأعمال والطاعات ، ومنزلة بعضها من بعض ، من حيث إن فيها النافلة والفريضة ، وفرض الكفاية وفرض

---

(١) انظر قصة بشر الحافى مع أحدهم فى (الإحياء جـ ٣ ص ٩ . ٤) .

العين ، والفرض المحدَّد وقته ، والفرض الموسَّع فيه ، والفرض المتعلق بالفرد ، والفرض المتعلق بالأمة .

ومن الكلمات المعبِّرة هنا للغزالى رضى اللّه عنه : ترك الترتيب بين الخيرات من جملة الشرور [1] .

إن شمول الإسلام لكل جوانب الحياة ، لا يعنى تضييع النِّسب بينها ، والإخلال بمراتبها الشرعية ، كما جاء بها الإسلام . وهذا هو الفقه حقاً « ومن يُرد اللّه به خيراً يفقهه فى الدين » .

* * *

(١) انظر : إحياء علوم الدين جـ ٣ ص ١ وكتابنا : « الإمام الغزالى بين مادحيه وناقديه » ص ٨٧ - ٩٠ ط . دار الوفاء - المنصورة - مصر .